

تصدير

في تصريح لاحدى الادبيات التونسيات ما يفيد ان لها خمسة اعمال جاهزة (قصص روايات) تنتظر النشر والوصول إلى القراء . وكانت المراءة طافحة على ذلك التصريح خاصة عندما عدت إنتاجها المنشور وانه لا يتجاوز الاثنين .

وبشير تصريح الادبية التونسية تساؤلات عديدة حول أزمة النشر أو تعثره على الأقل : فهل ذلك ناتج عن ضعف المستوى ، أو عن صعوبة النشر ، أم فقدان القارئ ؟؟

الواقع أن أغلب هذه التساؤلات - إذا لم تكن كلها مع غيرها - واردة على الساحة وأثيرت في هذا الركن من مجلة « قصص » .

وإذا كنا لا نملك هنا غير الجهر بالرأي ، وإبداء الاقتراح ، أو حتى الجار بالشكوى ، فإن ذلك لا يمنعنا من إعادة القول ، وتجديد التنبيه ، وإثارة الاهتمام .

ذلك أن واقع النشر ما يزال يتعثر ، وتوظيف رؤوس الأموال في ميدان النشر ما يزال محتشما لا يكاد يسد الرق . والناسر يقدم لك العذر تلو العذر عن ارتفاع تكاليف الإنتاج ، وعن كساد السوق ، وقلة إقبال القراء ، وارتفاع فوائض الاقتراض ، وصعوبة التسويق الخ ، الخ ...

وتشكي الناشر الذي يؤول به إلى الاحجام عن النشر معناه حبس الكتاب
وخنقه . ومعناه حرمان الكاتب من الوصول إلى قرائه ، ومعناه أكثر تكسير
الكاتب لقلمه ، وتخديره لطاقة إبداعه . وفي ذلك الموت والجمود .

إن القضية جد شائكة وما لم تتضافر الجهود الوطنية على مختلف المستويات
لبحث المشكل من جميع جوانبه - وهي كثيرة - فإن المعضلة تبقى والشكوى
تتواصل . وليس في هذا وذاك ما يوصل إلى الحل ويغض المشكل .

« قصص »



قبر فى المدينة

الجوع سلطان الشهوات يسكن فى أحشائى وأنا أتلطمز وأفرك عيني ،
أتخصص من بقايا النوم . وصوت أمى يلح بالاسراع فى جلب الماء . وأنا
أتباطأ ، والصوت يعلو حتى كان سبأيا وتهديدا وأصبح التهديد فعلا فقد
رفعت أمى العصا ولطمت بها أول متاع اعترضها فأصدرت صوتا ارتجفت له
أوصالى وأخضعنى للامتثال .

كنت أضع رجلا على عتبة البيت والاخرى تبحث عن موطئ . . أمر اليد
اليسرى على عيني واليمنى تتشبث بالدلو . فهل علمتم أننى السقاء فى مثل
تلك الساعة من كل صباح . أتردد المرات بين البيت والحنفية ولن اتوقف
الا متى امتلأ الوعاء الكبير وقد فغر فاه . . وذلك ما تشترطه أمى لتقديم
فطور الصباح . . كم مرة تمردت ؟! وكم هى المرات التى قررت فيها
الاضراب . فأقابل من طرفها بالاهمال . ذلك لأنها تعرف أن مفتاح الحل
يكمن فى الاكل وأنا من هواته . ويذوب تعنتى أمام الحاح الجوع ، وأقوم
الى الدلو أحدد شروطا أنا أعرف أننى أزرعها فى الهواء الطلق أجعلها ذريعة
للتكوص ودرء الهزيمة . ولكننى أقابل بالصمت من طرفها . وقد تجبينى
فى برود :

— لك وحدك الخيار ؛ فالعمل كالاكل لا يمكن أن تمارس هذا وتترك
الأخر .

وضعت رجلى الثانية حيث استقرت فانفلت الدلو من يدى وتدحرج
فأحدث ضجيجا جلب اليه وجه أمى وهى تطل من فرجة الباب وصوتها يؤنب:
— أنا أعرف انك فعلت ذلك باضمار . والله لو تحطمت كل اوانى الدنيا
ودلائها فلن ينجيك ذلك من جلب الماء ولو بكفيك . واعلم أنه لن يصيبك
الا ما أصابه . . سوف يندم أحدنا وتحقق أنى لن اكونه .

قلت ، وانا التحق بالدلو اركله برجلى وأمن فيتدحرج ويحدث تقلبه على مدارج بيتنا صوتا مزعجا اهاج أمى فجعلها تهذى بكل أنواع الشر تسلسلها عني .

– لن أعاشره مرة أخرى .. حتى لومت جوعا .. هه سوف نرى من يموت عطشا !!

قلتها وجريت ألوذ منها ومنه ومن المطر الذى تهاطل ساعتها بشدة بسقيفة مدرسة وأنا واثق من النجاة . فهى ، أى أمى ، لا تقدر على البروز دون لحاف وما عادت لاخذه اكون وقتها بمنجى .

كان مقبرة ذلك البيت الذى نسكنه . مقبرة لرجل واحد . لم يكن وليا من اولياء الله الصالحين تقام من اجله «زاوية» ولكنه كما يشاع . يدعى «الباشا» ومع كل جهل لهذا المدعو بالباشا فانا أعرف قبره فقط . وكانت أمى تضع أوانى الطبخ ولوازمه على الضريح «وابور» «الغاز» . وكانون الطين . والمهراس علب الصفيح التى تحوى التوابل والملح وحتى الملاعق والمائدة المتأكلة كانت تقبع هناك .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

والحق .. انه مؤهل لذلك فرخامه ائمن بكثير وأعرق أصالة مما يجلب لمطابخ السادة .

كان البناء فخما يحملك الى زمن غير الذى أنت فيه ، ارضيته مرصعة بالرخام الابيض الناصع . الحيطان مكسوة بجليز يباهى بالالوان الزاهية . سقفه من خشب معلى بدهن أخضر لامع به تزويق مبسط وخطوط الالوان تتخلله فتزيده جمالا . تظهر مهارة الصانع وقدرته فكانها رفع ريشته قبل ساعة . مصابيح الزيت «القنديلية» منضودة فى ثريا تتدل على الضريح . مربعات من الرخام عليها كتابات بخط كوفى ، الرخام ابيض ناصع والكتابة شديدة السواد . لست أدري كيف وجدنا هناك . فنحن لسنا من أحفاد الباشا ولا من أجواره ولا نمت له بقراءة ما . ولكن ذلك لم يمنع اصفاء شرف الانتساب فأهل الحارة ينتنوننا «بدار الباشا» فكنا اضافة باهتة فى تاريخ الكبار . ورغم أننا لم ندخل التاريخ ولا نعرفنا حتى على بابيه فقد ارتاب فى نفسى وأحملها على الارتفاع فتنصاع .

كنت اختبئ، مستظلاً بسقيفة المدرسة وقلبي يخفق من الخوف • والجوع يضعف تمردي ويزين إلي الامتنال لأمي واطاعة أوامرها • وهذا الوقت الذي تسرع فيه للكتاب • يقترب • وإن كان الأطفال من أترابي لم يتوافدوا بعد • فإن شبح المؤدب وقد قذفه الشارع وجسمه الثخين يتمايل • كيف العمل قلت لنفسى ؟ لا بد أن ترفض أمي الهزيمة ولئن انفلتت منها ناجياً من عقابها ، فهل انفلتت من عصا المؤدب فهي لا محالة شاكيتي إليه • وليست عصاه بأرحم من عقابها •

ومؤدبنا هذا رجل فظ مغرم برفع العصا • يتقن استعمالها في الاجسام الطرية • لا يهمه من الكلام غير المقطع الاول ولو تكلمت ساعة بعدها ما عبأ بغير أول الكلام كان تجيبه عن سؤاله لماذا تغيبت ؟

فنتقول : تغيبت لاننى مريض أو أن أبى مات • أو أن حارتنا هدمت •

فكل ذلك لا يدخل فى ذهنه وتبقى كلمة «تغيبت» وهى كافية لجلب اقسى العقاب • ويا ويحك ، وأنت تجلد ، لو رفعت عيترك تبيكى أو تستغيث فذلك يضاعف ما أنت فيه • يسمح لك بعدها بتهاطل الدمع ، مسيطر مؤدبنا هذا يتدخل فى حياتنا الخاصة : فى البيت ، فى الشارع ، فى كل مكان ، فكل حركة يضع لها تفسيراً حسب رأيه هو نصب من بين الأطفال فرقة مباحث ونمايين يحصون وهو المقيم ، ما صدر وما قد يصدر عنا •

حدثت نفسى وأنا ارتجف بهذا الذى قد يكون • وقالت هى أى نفسى : عد الى البيت • فأملك قد تعاقب وقد تغفو • ولكنها تبقى فى كل الحالات أمك عزمتم على العودة الى البيت ، لكن فى تلك اللحظة انفتح باب الكتاب وأطل منه وجه ذلك الرجل المرعب مؤدبى ، فتراجعت راکضاً ولم يكن لى من مأوى غير دورة المياه فحتى لو سنثلت بعدها أقول اننى اتقوط • وأنا أركض صلعاً وهذا الذى يسد طريقى سائلاً :

— مالك ؟ أخائف ؟ قلت :

— من المؤدب فهو يلاحقنى •

كان كهلاً ذلك الذى استوقفتنى • أخذنى من يدى والابريق فى يده الأخرى

وقادنى الى بيته . كان البيت عبارة عن حجر ليس به غير دكة من ألواح عليها حشية من القش وأغطية غير نظيفة . فى أرضيته حقيبة من الخشب تعلوها بعض الكتب وضعت فى غير نظام . فى ركن هناك تنور البترول عايه قدر يغطيها صحن من الصفيح تتربع فى دائرته ملعقة أحد طرفيها تآكل يرقد الى جانبها فصل سكين ليس به قبضة . أثناء مسحى لهذا الجحر وما يحويه كان الرجل يسوى هيئته أدخل رجله فى الحذاء العتيق . وامتدت يده الى الجبة ثم وأخيرا تعمم .

– انا جئت شغيعا لهذا الغر يا سيدى المؤدب

قال الكهل ذلك – ووشوش فى أذن المؤدب الذى انفرجت أسارير وجهه وزال عنه العبوس والتفت الى وقد عاوده الغضب – حتى كدت انقلت من يد الكهل فلم يعد ينجيني غير الهرب . وقال فى لهجة وعيد :

– يا ابن الكلب . سأحتفظ لك بالباقي فى مرة مقبلة كان أبى يهتم بالاكل أكثر من اهتمامه بما تسرد أمى على مسامعه وتبالغ فقد كانت روايتها تشبه المأساة بما أضفت عليها من المبالغة . تتحدث وتضرب على صدرها بيديها وتسال أبى رايه . فإذا عجز يضحك ثم يضحك ويعقب :

– أنت يا ولية . ما اظنك الا جاحدة . الا تذكرين . لقد كان هبة شيوخى «بن عيسى» وهو سميه . وهو الذى يتولى أمره . فلا تفسدى النوايا فنحن إنما نعيش ببركة الشيخ وعزنا فى الانتساب اليه . ولولاه فمن أكون . وقالت أمى شبه يائسه :

– شيخك هذا يحكم العقارب . وما قد انجبت باسمه عقربا . ولن يتحمل لدغتها غيرك .

ولم يكن أبى الا من أكبر المريدين لشيخه «بن عيسى» فهو يقوم بدور «عكاشاء» يتمايل جسمه الاسمر الثقيل فى حلقات الذكر التى تقام باسم شيخه ، وتتصاعد الاصوات تهتف ويطنى صوت السدف عندهما يأتي دور أبى فتغل يدها بسلسلة من حديد لو اجتمعت فئة من القبيلة لما قدرت على النيل من تفكيك حلقة منها . وان أبى ليضرب بها الأرض وفى أشد «خمرته»

فإذا هي شظايا . وإذا هو قادر على تحطيم اعنى الاغلال . وترتفع الزغاريد الى عنان السماوات . والمباخر تبوح بالاطايب فانتسب ساعتها الى الاعتزاز بابى الذى كن بطلا ليس له مثيل بين الحاضرين . وأصبح أروى لاترابى والفخر يتقاطر من كلماتى .

نحن ، اى انا وامى وأبى ، يصيغ جلدنا سواد اتينا به من صحارى افريقية . ورثناه عن الاجداد تخلصنا من كل ماضيها . تخلصنا من كل عادة ولم يبق لنا غير اللون الذى لم نجد من يخلصنا منه ، أمى طبخة ماهرة . تنهافت البيوتات الكبيرة على الاستنجاد بها وقت الافراح واقامة الموائد ، ولكنها لا تعود الى البيت بغير روائح تلك الموائد أو ما حوته بطنها . انها تنقضى اجرا وأكثر منه ثناء . وتعود الى البيت فخورة بانقتها . ولعلها انتسبت الى عائلة الباشا وتظن أنها الورثة الوحيدة . ولعل ذلك من فعل الجيران حيث اصفوا علينا اللقب الكبير .

أما أبى فقد كان تاجرا ينتصب فى مكان ما من المدينة يضع على عربته طبقا من الفصدير به مثلثات من الحلوى تصنعها أمى من السكر والدقيق وتعرفها فى مادة يجذب اليها الاطفال . وقد كان عيشنا فى المستوى الكريم . ولعلكم تظنون أن الأشياء الحفيرة فى نظركم هى كذلك فى نظر من يمارسونها . انها للغالبية من المسحوقين . ومن أجلهم صنعت والا فما معنى الحياة للجميع .

كذلك كانت عربة أبى تجذب اليها من هم فى مستوى ما يعرض بها . وقد أعدت العربة ولونت بزاهى الالوان . وكتب على جوانبها بخط عادى يا فتاح يا رزاق . ومع الاسف فقد أهملت نقطة حرف منها فحرف المعنى . النجار فعل ذلك وما استشار أحدا وعلى أركانها الاربعة وضع صواري عليها أغلام وطنية وفى مكان بارز وضع صورا لرجال . . النجار هو الذى يعرفهم فأبى لا يعلم عنهم شيئا . وما صادف أحدا منهم فى حياته . هكذا فيما أظن . وكان أبى وقتها مزهوا أوليس يجلس خلف عرشه المزدان . وكنت أقبع خلف العربة أتابع حديثا مرحا يدور بينه وبين أحد التجار وان الناس ليقبلون على البضاعة وأبى يلفف لزبائنه بورق مكتوب وانها للحظة والشارع قد اظلم والغرابيب السود تسد فضاءه ، البوليس بلباسه الاسود والحوذات

السوداء يشهرون السلاح في وجه ابى يحطمون العربة فتغدو هباء منثورا
صفعوا ابى حتى اتحنى الى الارض يخفى وجهه قال احدهم بلهجة الجبابة :

- ترفع الاعلام • تعلق صور المجرمين • توزع المناشير لن يكون
مالك غير الشنق • علم من هذا الذى ترفعه ؟

ورد ابى فى لهجة مقهورة :

- انه العلم التونسى •

- ومتى كان لتونس علم • قال الشرطى المتفطرس وصفع ابى وبصق
فى وجهه • وضعوا فى يده الاغلال وساقوه امامهم • وقد اقفر المكان فكل
التجار اغلقوا الابواب ولم يعد غير الخوف يستحث المارة • وعجبت لهذا
الغل الحقيقى فى يدى ابى افلا يقدر على قطعه كما يفعل فى العادة باكثر من
هذا باضعاف • كنت اتعلق بذيل امى وهى تطرق الابواب تستجدى الشفاعة
والدموع تبذل اطراف ثوبها • وكان اغلب من استنجدنا بهم من اصحاب
النفوذ يتبرا وبعضهم طمان ووعد قباطل • وآخرون اشبعوها تقريبا وكلاما
مزعجا •

- ما لهذا الاسود الفقير وهذه المشاكل • لو اوقف من اجل السرقة
او بيع الهروين لما توانيت عن التدخل لفائدته • ولكن الامور هنا اخطر فهو
منهم بالانتماء الى خطر كالمطاعون • يوزع مناشير الحزب ويلقى على عربته
صور زعمائه ويرفع عليها العلم التونسى شئ لا يقدر على مواجهته غير الباي
نفسه لو كان فى مقدوره ، فاذهبى الى هناك نساء القصر يعرفنك ،
قالت زوجة الباي :

- اذهبى اليه بنفسك انه هناك فى الحديقة • فلعل الله يلهمه الانصاف
اليك • انا اعلم انه يدخل الناس الى السجون وما علمت انه اخرج منه
مظلوما •

كان الباي منكبا على وجهه يتحدث الى مجهول • وكانت رائحة المكان
كريبة • سألت امى •

- ما هذه الرائحة الغريبة ؟

- اسكت - قالت امى - والا فضحتنا • فما جئنا الا لنتزلفه • وأسرت
فى اذنى •

- انها رائحة دخان الباي

امعن الباي فى الالتصاق بالارض وتكلم

- عودى من حيث آتيت ايتها الحشرة اللثيمة • لو افهم لغة النمل فاكون
كسليمان لوشيت بك الى باى النمل • تنفردين بالاكل وحدك ولا تعملين
مع المجموعة لن يشفع لك الا اذا كنت من العائلة المالكة •

وبقصة السيسى الذى يدخن بها حركها نحو نملة •

- انت ايتها الضالة عودى من حيث آتيت • عماذا تبحثين • سوف اضع
وقتي كله لمراقبتكن • وساجعل منكن مملكة مثالية بين قرى النمل • أو
لستن من سكان قصرى •

أشارت امى أن انصرف وتبعتنى متسللة وهى تنتمى «هاذا يرتجى من «باى»
يهمل ملكه ليرعى النمل • والنمل يعصى أوامره»
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تقلب ليلىتها على الفراش وما دريت أنا أم يقظان • وخيل الي أننى
اسمع صوت امى تأمرنى أن أشعل التنور • وامتدت يدي لتتناوله فاذا صوت
ينهرنى • وتمطى شبح عرفت فيه شخص الباشا وقد رأيت شبيها له فى
قصر الباي •

قال الباشا :

- حارات • تنتصبون فى المقامات العظيمة لتمارسوا اهانة السادة
الشرفاء تدنسون التاريخ • غادروا مملكتى والا أمرت بشنقكم • لو دفنوا

سيفى معى اذن لقطعت رقابكم •

قلت :

- لماذا تعادينا ونحن جيرانك نحرسك •

– لبئس الحراس أنتم – قال الباشا غاضبا .
قلت :

– نحن رضىنا بمعاشرة الاموات . وها ان الاموات يرفضون معاشرتنا .
كان شبح هذا الباشا مخيفا يلوح بكل رايات الحقد السوداء . لم يترك لى
الهلح فرصة للتعرف على شخصه وما لمحته من خلال الرعب . عظم رأسه
الذى يخفى تحت لحية كثة وخطها الشيب ، وشارب يشبه ذيل بغل قصير
الى درجة التقرم . وقلت فى نفسى يا هذا الشكل المزرى . من استدعاك الى
عصرنا أجئت لتذكرنا برأس المحنة ونحن فى عمقها نتخبط ..

ورفعت صوتى أخاطبه .

– أنا لا أفهم ما تقول . هذا كلام من الماضى ، وكنته . اذهب الى أبى فى
سجنه فلعله يفقه ما تقول قال الباشا :

– انى لا علم أنه سجين . وانى الذى أمرت بسجنه وأعلم كذلك أن
عقله لا يتسع لما أقول وأنه أنجب أخيرا ولدا وقحا مثلك يسأل من لم يستمع
فى حياته الى سؤالك الرادى . وأولى بالسجن منه . بل قتلك أوكد .
تناقش السادة الكبار وأنت فى هذا السن . ماذا يكون مآلك لو كبرت والتأم
عقلك . سوف أضعك بين يدى الجلاوذة يضربون عنقك . وكذلك كنت
أفعل .

وقلت أخيرا وقد ضجرت من صولته على .

– سوف أشكوك الى المؤدب فعصاه أعتى من كل سيف . وسيسلطها على
قدميك فتتأخر زاحفا والبكاء يخنقك فلا تقدر على الاصداع به والاطفال
يضحكون شامتين .

– همى الطبايع اللثيمة – قال الباشا – تتقون الظلم بأقسى منه . تقطعون من
الاشجار سباطا لتؤدبكم فيما بعد .

بحثت يدى عن فصل السكين قلت : أظعنه واستريح . لكنى تراجعمت

فما الفائدة أن تقتل ميتا واقتربت أمي تهزني • ففتحت عيني فإذا هي تقول
- قم قبل أباك فقد أفرج عنه

وقمت ركضا وما تبينت موقعه حتى هداني صوته فارتيمت في أحضانه •

كان أبي منهوك القوى والاعياء باد عليه تجسست كدمات ولطخ من الدم
تصيح ثيابه • وبكيت •

- من فعل بك هذا يا أبي •

- انها الحرية يا بني • سوف تكبر لتعرف ثمن الاشياء •

قالت أمي وهي تقدم له الماكل •

ولكنك عدت على كل حال • فلا تقل : إن شيخك بن عيسى هو الذي
أعادك •

- ومن يكون غيره • قال أبي - وعمل اعتمدت في يوم ما على غيره •
فالديلة تقام باسمه في بيتنا الحفلات •

التابعي الاخضر

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الأكواريوم

انشرحت ربة الدار عندما رآته . والدليل على ذلك ارتعاش أهدابها المصبوغة ولعان عينيها ، كان يانس للجلوس في بيتها ليلا مع بعض المدعويين فيهلل به زوجها ويفرح ويقدم له أجمل أريكة ويتحادثان وتبتسم ربة الدار أحيانا بانسراح ظاهر وأحيانا تتكلف ذلك ، ويمكث في مكانه ينتظر وقت العشاء والجلوس في غرفة الأكل . انه يحب تلك الغرفة لان ربة الدار امرأة فنانة وذات ذوق رفيع . غرفة الأكل هذه متوسطة الحجم ، بها مائدة مستديرة محفوفة بشمانية كراسي ، يغطي هذه المائدة سباط مستدير الشكل رقيق الزرقة تصطف فوقها صحن موشاة بزهور زرقاء فيما اتكأت على جدران الغرفة رفوف من البلور تحمل أجمل التحف المختلفة الاشكال كانت جميعها زرقاء ، تتنوع كلما أنيرت الغرفة . وفي الجانب الايمن من الغرفة ، هناك فتحة تصل السقف ، اقامت فيها ربة الدار حوضا للأسماك جميلا ، في شكل مستطيل أنيق ، من البلور السميك الأملس ، تخاله امتدادا لحائط من البلور يكون كالشاشة . كان قاعه مفروشا بالاعشاب الصغيرة ، تطفو على سطحه بعض زهور النيلوفر الخضراء وتتسابق وسطه أسماك عديدة الألوان وينعكس فوق مائة ضوء أزرق يوحى بصفحة البحر تلتع تحت ضوء القمر .

كان يحلو له الجلوس في هذه الغرفة لانها تذكره بالبحر . وكان لصوت خرير الماء المنبعث بدون انقطاع من حوض الاسماك الصدى البعيد في نفسه ، فيختار مجلسا امامه موليا ظهره للحائط الشاشة فتتعلق أذناه بصوت الخرير وتبرق عيناه فكأنه يحمل أحاسيس عدة ازاء الجالسة قبالة وهي ربة الدار .

كانت تجلس قبالة تبتسم أحيانا بانسراح وتتكلم أحيانا فلا يسمعها وأذناه في الخرير غارقتان وتتكلف الابتسام أحيانا أخرى ، كان قلما يشارك المدعويين في أحاديثهم وهو كالمخدر يتحدث ولا يعي ، يبتسم ولا يعي معلق الى الخرير ، الى هذه العين التي لا تنضب ولا تمل ويسهو أن يأكل ويترك ما سى

الدار وتستعطفه وتنتهي السهرة وتستبقيه ربة الدار وزوجها فيجلسون في شكل مثلث: الزوج والزوجة على اريكة الوسط ويجلس هو على اريكة قبالتهما . ويطول بهم الجلوس هكذا وقد ذهب المدعوون وبعم السكون غرفة الجلوس فينصت الى صوت الخريز وهو يتفاقم فيتمنى لو يتركانه هنا على هذه الاريكة اللينة لينام مع الصوت ولكنه ينهض ، قاصدا الباب وتتبعه ربة الدار وزوجها في شكل قاعدة المثلث ثم يبتلعه الشارع المظلم .

بالاضافة الى أنها ذات ذوق رفيع فان ربة الدار كانت لا تستقر على حال فتغير لون شعرها باستمرار كما تغير تستريحتها باستمرار . وكانت كثيرا ما تغير أثاث المنزل فيصبح شكله متجددا غير مألوف واذا الفت ذلك التجديد ملته فتعيد الاشياء الى مكانها ثم تغير ما فعلته . وهكذا كانت تعيش وسط دوامة يصعب التحرك في فضاؤها الدائري وتظهر كالسمكة العائمة التي يصعب القبض عليها باليد .

وكان زوجها يرتاح الى العيش معها لانه يحس بمعايشة نساء متعديدات ، متنوعات ويشعر بنفسه يتحول من منزل الى آخر في اوقات وجيزة ، فكانه يعيش ترحالا متواصلا مملوا بالمفاجآت والصور المتغيرة العائدة الزائفة فيشعر بشيء من الحرية

تفطن الى ذلك لما دعي مرة فوجد حوض الاسماك يتسلق حائط الصالون في الركن الايمن اذ قررت ربة الدار ذلك التغيير . اتجه نحو الحوض فرأى أسماكاً جديدة تقوص وترقص وسط الماء فسألها مبتسما :

- أرى أسماكاً جديدة ؟

- قالت قى تعجب :

- حقا ! لم أتفطن لذلك . ثم اردفت مفسرة : لست أنا التي أقوم بتنظيفه .

سكت في بلاءة . ثم قال وكأنه لم يسمعها .

- ستكون لك أسماك أخرى في الاسبوع المقبل . كان يمرر يده على بلور الحوض الاملس مشيرا الى سميكات صغيرة زرقاء كانت عالقة بالاعشاب الصغيرة التي تراوح في أرض الحوض . قال الزوج :

- أصبحت أعنى بحياة الاسماك وأتبعها باهتمام من خلال هذا الحوض .
أعرف أننا لا نختلف عنها بكثير ؟ اختلافنا بيولوجى فقط ، حوت ياكل
حوت ...

ثم ضحك فى بلاهة ...

مرت بضع أسابيع . وذات عشية صيف حارة تكثر فيها الحيرة ويدمع
فيها الجسد عرقا ، قصد منزلهما طرق الباب الخشبي . فظهرت ربة الدار
فى الردهة ، لاحظ أنها فقدت بعض الكيلوغرامات وأصبحت تسبح فى
جلدها وكأنه انتفخ كما لمح شحوبا غير معهود أضفى على بشرتها شفافية أكثر
مما كانت عليه ، تتشابك تحتها العروق الزرق . فيما قابلته عينها المنتفختان
وتفاقت تجاعيد وجهها فكانها أصيبت بالشيوخه فى بضعة أيام . واصفر
وجهها فأصبح فى لون ثمرة الليمون .

أحس بأنه ضيف ثقيل وأراد العودة من حيث أتى . ولكنها ابتسمت فى
تكلف ودعته للدخول . جلس على حافة الأريكة المائتية قرب النافذة، أحس
بكابوس فى فضاء الصالون ، وظهرت الأشياء ترشح حزنا هنا ، سمع قهقهة
مدوية ارتبك لوقعها فى فضاء المنزل ، سألها بالإشارة : قالت الزوجة ، وهى
تعالج خاتما فى خنصرها الايسر بحركة نرفزة غير مكتومة .

- لقد جاب حوض الاسماك الى غرفة النوم وأصبح يقضى كامل الليل معلق
النظر اليه ، يرقب الاسماك تارة ويتصفح كتابا عن حياة الاسماك تارة أخرى،
ويدعونه الى الاعتقاد مثله بالشبه بيننا وبين الاسماك . يقضى الليل يحادث
الاسماك ويداعبها أحيانا بأصابعه فتخاطله وتنثر حبات الماء فى كل صوب ،
ويضحك وحده ويقهقه بصوت عال ويمعنى من الراحة . ويصرخ ويتوعد ثم
ينام على الكرسي أمام الحوض ويعانقه ويمكثان هكذا ! لقد مللت ذلك فهجرت
غرفة النوم وجرت النوم فى الصالون ، ولكنه أصبح يعربرد ليللا ويفنى
للأسماك ويأتينى محبر الجفون يطلب منى ارتقاء الحوض والغوص فيه لأصبح
سمكة وأتساجر معه ... ثم أتى يوم ترك فيه العمل ولزم غرفة النوم ولزم
الحوض . أصبح يقضى كامل يومه يبذل فى الحوض بصور أعضاء الاسماك
وزعانها على أوراق تكدست بجانبه ، ثم يعود يتصفح الكتب ويضحك أحيانا

ضحكات هستيرية ، ويطلب الاكل فاناولة الطعام وهو جاث أمام الحوض ولم يعد يهتم بى ، يأكل ويتجشأ ويبصق على الارض ويلقى الفتات على ذقنه الذى لم يعد يحلقه ٠٠٠ وأقضى نهاري بين غرفة النوم والصالون أنظف حوله وأمسح لعبه السائل ، الماء لمتناثر فى كل مكان وهو على الكرسي يتوسد ويصرخ وعندما يأتى المساء أذهب الى الصالون وأحكم المفتاح فى المزلاج ، وأبقى ساهرة أترصد حركاته فى الغرفة المجاورة وصرخاته . وأنهض فى الغد لأجده ملقى على الكرسي عيناه مفتوحتان فى بلور الحوض ولعابه يسيل وذقنه غير حليق والبصاق والاساخ تحيط به ، فانحنى أنظف متمنية موت الاسماك ، ولكنها حية تتكاثر يوما بعد يوم ، وتكبر وتكشر عن أنيابها المتعددة وتزعق مخرجة أذنانها ورؤوسها من ماء الحوض كالنيازك القاتلة !

صمتت قليلا ، ثم تأملته بعينين زجاجيتين وصرخت :

— انها تشبهنا فى نزواتنا ، انها مخيفة ! الفرق بيننا وبينها بيولوجى فقط ٠٠٠ أتعرف «حوت يأكل حوت» و !!

كان صوتها يتضخم ويملا الغرفة ، انطلق كالسهم ، عبر الفيراندا فى ملح البصر ونزل الدراج فى ثقبه الغيبوبة ولم يشعر بشئ للسوى رائحة الياسمين تباغته عند الباب الخارجى . وأبصر أغصان الياسمين اللبنة تتلوى على أشكال هندسية متداخلة . أسرع بكل جهده ، لم يرد أن يركض فقد كان دمه يركض من أم رأسه الى ذؤابة اصبح ساقه ثم العكس .

نافلة ذهب

تأليف : اندريه شديد (**)

تعريب : أحمد ممو

الموت البطيء (*)

أحسست المرأة الشاباة بأثر الرصاصة فى ظهرها . بعث فيها ذلك ألما حادا وفجئيا . واصلت المرأة طريقها كأن شيئا لم يكن ولكن ذلك الشعور لم يطل . حواليتها كانت الأشجار متناثرة والرصيف محفورا . البناءات الفخمية الواقعة فى شكل مستطيلات قائمة تشهد بأن المعارك كانت حامية وأن الهدنة لن تكون - مرة أخرى - الا وقتية . أصيبت .. ميم .. برصاص رشاش لم يكن موجها اليها ولكن جرحها يبدو حقيقة مائلة للعيان . لم تكن تسعى الى معرفة أكثر من ذلك وقد غادرها ذلك الألم المفاجئ . ما كان يهمها بعد بقائها حية طبعاً هو أن تصل الى مكان الموعد . هناك عند نهاية الجسر عند زاوية الحاجز .

كانت شمس الساعة الثالثة زوالا تضيء الساحة الخالية منسكبة على وجهها وتلف جسدها ذى السنوات الثلاثين . كان ذلك الجسد يتحرك الى الامام . كانت تدفعه . ستسعى الى اختصار الطريق وستصل الى هناك . ستصمد الربع ساعة الذى يفصلها عن الموعد .

تراقصت الطريق واكفهرت وفجأة ثقل الهواء واصبحت السماء رمادية . سيطر ثقل غير محدود على حركات .. ميم .. وضعف احساسها ولم تبق تحركها الا تلك الرغبة الجارفة فى الوصول الى الجسر .

مدت راحتيها الى الامام ثم مدت ذراعيها . كانت تتمنى ان يساعدها ذلك على دفع جسدها المتناقل الى الامام . أحسست بساقيها تتحولان الى قطن .

كان الخوف من أن لا تتمكن من الوصول الى الموعد يخفر احساسها ألما أكثر حدة من ذلك الذى تركته الرصاصة فى جسدها .

« أين تكون حدود هذا المكان ؟ ولماذا ؟ .. »

وتوات مجموعة من الأسماء على الذاكرة . وسط مزارع الأرز وعلى اسفلت المدن ، وسط الجموع المتراسة والتي كان يأكلها الرصاص ، كل أولئك الذين كانوا يلفظون أنفاسهم فى وحدة من مشردين ولاجئين وساقطين تحت الرصاص ومعذبين ، هاهم الآن يتجهون الى هذه الساحة ، يتجهون الى شخص ما ، يتجهون الى هذه المرأة الجريحة التي لم تغادرها الحياة بعد ..

عنف يردفه عنف وفظاعة تغشاها فظاعة ووجوه دامية وأخرى شاحبة ، نزيف من الرجال .. المكان لا يهم .. هي الانسانية فى أى مكان . هذا المشهد لا نهاية له .. فى كل جسد جريح تنداعى الاجساد الأخرى بالأثين والسقوط منجذبة بقوى عمية الى نفس المجهول ..

أخطأت .. ميم .. فى تقديرها لقواها . مدت بصرها أمامها بحثا عن النجدة فلم تعثر الا على الفراغ . جرجرت نفسها تحت الحائط . تحركت أصابعها تنشيت بشيء ما . كانت تقاوم ، صامدة هي . ارتفع صدرها الى الاعلى ولكن ركبتيها اثنتا متراخيتين لتنطرح أرضا .

صرخت .. ميم .. ولكن صوتهما اختفى فى احتجازها فلم يتحرك إلا صدغها . بقى ذلك الصوت غمغمة على شفثيها ثم انطفأ . وللمرة الثانية أحست بآلم حاد يتخلل جسدها وبسائل دافئ يسرى بين كتفيها مبللا قميصها .

كفت المرأة الشابة عن مقاومة جسدها وأصبحت تسعى الى اتباعه متجنبة الشبهات . كانت ترعى ذلك الجسد بتشنجاته وحركاته . لم تعد تقاوم حركة رأسها من جهة الى أخرى أو حركة ذراعيها التين كانتا ترتفعان شاقطين الهواء متشبثتين به . كانت تسعى الى التوصل الى انتظام أنفاسها أملا فى البقاء على قيد الحياة حتى يمر شخص ما تستدعه وصيتها . كانت « ميم » تستسلم تدريجيا دون أن تفقد وعيها .

تدور حول نفسها وتدور ، تتكور تتغير وجهتها رويدا رويدا . كما يحدث ذلك فى الافلام البطيئة شرعت فى السقوط حتى أدركت الرصيف حيث هى مستلقية الآن فى وضع جنينى . خدها ملتصق بالأرض ، عينها تبحث عن شخص ما . كانت المرأة الشابة متشبثة بآخر ومضات الاحساس بالأشياء .

بعث فيها آخفتاء الشمس وراء سحابة شفافة رعبا مفاجئا ولكن الشمس عادت سريعا الى الظهور وهو ما بعث فيها ارتياحا حقيقيا . على مقربة منها انبعث صدى نافذة ثم غشيتها رائحة القهوة . كانت « ميم » تدفع عنها تلك الذكريات التي كانت تهاجمها فى شكل موجات . كانت تسعى الى التشبث بهذا الحاضر وذلك الجزء القليل من المستقبل الذى تسعى الى انقاذه . وبكثير من الجهد والحذر توصلت الى أن تخرج من جيبها صورة ملونة فى حجم بطاقة بريدية وبقايا قلم ..

النهاية تقترب .. تقترب ولكن هناك مجال كى « يعيش » الانسان .. ها هو الموت يظلل مجال ادراكها . هذا المجال الذى كان يتقلص تدريجيا مع مرور الدقائق . تراءت لها - من بين أجنحة الموت المريضة الرمادية - تلك الحداة التي كانت تحلق وتحلق فوق بنايات مدينتها قبل أن تتحول الى قطعة من اللحم على حافة شرفة ...

انفتح باب على يسارها على بعد بضعة أمتار وقبل ان يفامر شيخ وعجوز بالخروج أجالا نظريهما فى السطوح المجاورة حيث يكمن القناصة عادة . كان الشيخ يحمل حقيبة حُرمت بخيط . وما أن اجتاز العجوزان الباب حتى مدا يديهما الى بعضهما . كانت « ميم » تتفجديهما بعينيها محاولة أن تجد ملاذا لها بين راحتيهما المتشابكتين فى حنو .

كانت تسمى لو أمكنها أن تضع رأسها - كما تفعل ذلك العجوز الآن - على صدر رفيقها كى تتلقى نفس القبلة على شعرها .

من أعماق صمتها كانت « ميم » تصرخ بهما ساعية الى أن تلفت انتباههما . ما الذى جعلها تلبس هذا الفستان الرمادى الذى لا يميز جسدها عن الجدران المحيطة بها ؟ لم ينتبه أى منهما الى وجودها . كانا يتحادثان بصوت خافت ثم تحركا فى بظء فى الاتجاه المعاكس لمكانها .

النفثت العجوز مرة أخيرة فى اتجاه منزلها الذى تتركه ، وفجأة أبصرت هناك شيئا ملقى على الرصيف .

.. ميه .. توقف .. انظر هناك ! ..

عادا مسرعين يستند كل منهما الآخر . ثم قطعاً الطريق بأسرع ما تسمح به أرجلهما من سرعة .

ركع الشيخ على ركبتيه ليغصص الجريحة . أدرك أن حالتها خطيرة ولا رجاء في انقاذها . وفجأة وبكل ما في أفكاره من نعمة وبكل ما فيها من لماذا ؟ أمتلات عيناه دموعاً وغضباً .

كانت العجوز تصيح وتدق الابواب استغفاراً للجيران .. ولكن لا مجيب . أغلب العمارات كانت خالية بعد أن تركها سكانها هرباً الى الريف . أما الباقون فهم لا يجروون على الخروج خوفاً من استئناف المعارك بعد تلك الطلقات التي توقفت منذ حين .

بجهد لا يقدر رفعت « ميم » يدها ومدت أصابعها المرتعشة ماسكة ببطاقة بريديّة . أمسك الشيخ الصورة . نظر إليها ثم قلبها . كانت كتابة دقيقة بحبر داكن تغطي ظهر الصورة .

ARCHIVE

« لا أرى جيداً .. انظري ! .. اقرئي ! .. »

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

أخرجت العجوز نظارتها ذات الأطار القضي من ذلك الجراب المشدود الى رقبتها وشرعت في القراءة بصوت مرتفع . بدا الانسراح على وجه المرأة الشابة - سأذهب بسرعة !

- تذهبين وحيدة ؟ ..

هز الشيخ رأسه بالموافقة . شدت العجوز متكبيها الى جسدها ودبت بكل ما في ساقها من قوة صاعدة الطريق متجنباً الطوار عرضة لكل الطلقات . هكذا هي .. مندفعة دائماً .. !

كان ينظر إليها وهي تصغر تدريجياً عند مرمى البصر . تابعها بنظراته بقلب واجف .. هكذا كان يراها ..

لكن هذه المرأة عندما كانت في سن هذه المرأة الشابة المحتضرة كانت تأتي الى لقائه من الناحية الأخرى من الشارع . كانت تندفع وسط الزحام تتقدم في

اتجاهه جريا تكبر تدريجيا عند حد البصر منزلة بين السيارات بوجنتيها الملهيتين وشعرها الهائج .. هكذا هي مندفة دائما ..

كان الرجل جالسا عند نهاية الحاجز الذى يحد الجسر لم يصل الا منذ لحظات . كان قد اكتشف عنوان المرأة الشابة منذ يومين فقط وكان يعلم أنها قد استلمت بطاقته البريدية .

الآن وقد استعادت المدينة أمنها .. لابد أنها لن تأتى ؟ .. « ميم » هي عين الانضباط فى المواعيد .. لا يمكن أن تتأخر .. لقد طال الانتظار .. !

عرفته العجوز من بعيد إذ كان يحمل نفس الصدار الأزرق الذى يظهر به على الصورة . حركت العجوز يدها بالصورة من بعد كى تجلب انتباهه إليها ولكن حافلة مثقلة بالركاب زعقت من ورائها بشدة مما أجبرها على الالتجاء الى الطوار تاركة لها الطريق . مرت الحافلة بجانبها بعد أن لحست ثيابها كى تواصل طريقها مترنحة .

شاهدت العجوز الرجل الشاب يتعلق بذراع أمّدت إليه من داخل العلية الحديدية الضخمة . حدث ذلك بسرعة . تشبث الفتى بالذراع الممتدة اليه ثم دفع بجسده الى المراقبة محاولا حشر جسده داخل الحافلة . صرخت العجوز دون جدوى إذ إن هدير المحرك كان أقوى من صوتها . وفى لحظات اختفت الحافلة وراء سحابة من الغبار .

استندت العجوز الى الحاجز متهاكة ومضت دقائق قبل أن تعيد قراءة الرسالة عدة مرات . ومع كل كلمة كانت قطعة من شبابها تتمزق . سرت فى جسدها رعشة مجرد أنها تخيلت أن ذلك الفتى الذى غيبته الحافلة كان يمكن أن يكون رفيقها . تسمرت أفكارها عند ضرورة الالتحاق برفيقها بأسرع وقت ممكن . انطلقت تجرى على الطريق التى جاءت منها مسترجعة كلمات الصورة من الذاكرة .

« الدمار والعنف والحقد ، تقصت كل الأتعة فماذا بقى كملاذ للانسان ؟ منذ أن أصبحت أعيش الموت بدا لى كل شئ جنونا وعيونا . لم يبق الا الحب الصادق ، ذلك الحب الذى يجمعنا يا « ميم » . رغم كل ما يمكن أن يحدث

سأنتظرك بعد غد على الساعة الثالثة زوالا هناك عند نهاية الجسر كما كان الأمر عند اللقاء الأول (سنوات ست مرت بعد !) تصلك هذه الصورة مع هذه الكلمة مع صديق . إن لم تأت فسأفهم أن كل شيء قد انتهى .. »

أسفل ذلك كتبت المرأة الشابة بأحرف مرتعشة بالقلم : « سأتسى يا حبيبى .. »

ركعت العجوز واضعة ذراعها حول كتفى زوجها وأسرت اليه بما حدث ثم أضافت : « يجب أن نعثر عليه فى يوم ما .. ! .. أخبرها بدوره وبصوت خافت أن أحد المارة قد انطلق للبحث عن سيارة اسعاف ولكنه يعلم مسبقا أنه لا أمل فى انقاذ المرأة الشابة . انقطعت حركة المرأة ولكنها كانت تتنفس بصعوبة . انحنى العجوز عليها كى تسمح بأنفاسها ذلك الخد الشاحب . مست شفتاها الصدغ ثم فرقت أصابعها الشعر كى تكون الأذن قريبة . سمعت العجوز الى أن تسكب فى كل نبرة شيئا من ذاتها :

— كان هناك عند الجسر .. لقد رأيته يا صغيرتى وكلمته ..

: تنهدت « ميم » مما شجع العجوز على المواصله :

<http://Archivebeta.Scribd.com>

— إنه على الطريق .. إنه قادم ..

رفعت العجوز نظرها الى الشيخ . تلاقت أنظارهما فى تفاهم .. وأصل الشيخ بعد برهة :

— انه هناك عند نهاية الشارع .. ! ها هو قادم الينا . لقد عرفته من صدره الأزرق .

واصلت العجوز صدى له :

— إنه قادم .. ! ها هو آت .. !

— ها هو قادم .. !

— لقد آقترب !

تداخل صوتاهما . سرت الأمواج فى شرايين المرأة الشابة واتسعت دواثرها أشع فانوس السعادة على ملامحها وتساعد من صدرها نفس أكبر من كل البحار .

تملك العجوزين نشوة الفرح والفرح والياس وانطمانينة . كل هذه الأشياء التي تتداخل في أفكارهما وكل هذا العبث . تحركت يداهما تبحثان عن بعضهما كى تجتمعا يدا واحدة .

يد واحدة تستقر كمنديل من الحنان فوق تلك اليد الشابة الساكنة التي لم تكن قد فقدت حرارتها تماما .

أندريه شديد

(*) نقلت هذه القصة عن الاصل الفرنسي المنشور بملحق جريدة « لموند » (LE MONDE)

40 Nouvelles II ; Suplément aux dossiers et documents du Monde, Juin 1983.

(**) **المؤلفة:** أندريه شديد (ANDRÉE CHEDID) ولدت بالقاهرة وهي من أصل لبناني استقرت بفرنسا منذ سنة 1946 . نشرت عدة مجموعات شعرية ومجموعة من الروايات (مع دار النشر FLAMMARION اثارها المنشورة هي : <http://Archivebeta.Sakhrir.com>

- النوم الحالص (1952) Sommeil délivré
- يونس (1955) Janathan (Le Seuil,
- اليوم السادس (1960) Le sixième jour
- الناجي من الموت (1963) Le survivant
- الآخر (1969) L'autre
- المدينة الخصبة (1972) La cité fertile
- نفرتيتي وحلم آخناتون (1974) Nefertiti et le rêve d'Akhnatoun
- الدرجات الرملية (1981) Les mouches du sable
- الأجساد والزمن (مجموعة قصصية 1979) Les corps et le temps
- لبنان (دراسة ، 1969 ، Liban (Seuil,
- القلب المعلق (قصة أطفال ، 1981 Le cœur suspendu
- مجموعة مسرحية ، 1981
- دراسة عن (1974) Guy Levis-Mono (SEGHES,

صورة المجتمع في رواية « محاولة عيش »

- 2 -

ب - الواقع السياسي :

أتاحت السلطة السياسية الفرصة للقواعد الأمريكية حتى تكون عوناً لها إذا ما هم الشعب بحسابها : « نظر [حميد] بعيداً الى ما وراء النهر الذي ينعطف ويحاصر القاعدة الجوية الأمريكية ليصب في المحيط الأطلسي » (37) .

ومن خلال مشاهدات حميد - البطل الرئيسي في الرواية - تعرف أن للأمريكيين في مجتمعه اليد الطولى .

فالجنود الأمريكيون يرودون الملاهي الليلية ويسكرون ويزنسون ويحاولون افساد الشباب ، فحميد : « أوقفه أمريكي ضخم الجنة كان في منتهى السكر ، مد له زجاجة البيرة ، وتحدث اليه بالأمريكية ، لم يفهم حميد كلمة مما خرج من فمه ، لسان الرجل متعب من فرط الشراب ، فهم أن يدعو للشراب ، أشار حميد برأسه أن لا ، لكن الأمريكي خاطبه بالعربية :

- لا تريد ؟

- لا .

- لماذا ؟

- أنا مسلم .

- قل أنا صغير احسن .

(37) محاولة عيش : 12 .

– هل تريد أن تلعب مع هذه الفرنسية ؟ انها تحب العرب الكبار والصغار .

ضحك الأمريكى وضرب المرأة من الخلف صرخت المرأة دون أن تلتفت اليه :
أى ، دعنى ألعب ، سأربح هذه الدورة ، كم ستدفع اذا هزمت أيها السكير ؟

قال الرجل :

– سأدفع لك حياتى .

التفت إلى حميد وهو يتمتم :

– وحياة هذا العربى الصغير .. « (38) .

فالجندود الأمريكىون – مع غيرهم من الملاحين من مختلف الجنسيات –
يتدققون على الحانات ويتشاجرون ويتضاربون بالزجاجات وبالأيدى .
و « الجنود الأمريكىون بالخصوص يدوسون كثيرا من الخادصات المغربيات
والسكارى بسياراتهم الطويلة العريضة .. » (39) .

فجنود القاعدة الجوية الأمريكية يزدهون الرعب فى أوساط الشعب كما فى
الافلام (40) ، وفى الوقت الذى تطارد فيه شرطة القاعدة الجوية الأمريكية
هؤلاء الجنود لتعاقبهم فان الشرطة الوطنية لا تحرك ساكنا ، بينما يجب أن
تكون هى المعنية بحفظ كرامة المواطن .

ورجال الشرطة الوطنية لا يحركون ساكنا – فى الغالب – الا مع المومسات
الوافدات من الاحياء والاماكن الفقيرة مثل : حى (سيدى يحيى) و (سوق
الاربعاء) أو (جمعة المكرن) أو (سيدى غلال التازى) . والشرطة الوطنية
تعتقل هؤلاء المومسات لابتزازهن بتهمة الزنا اذ الزنا حرام فى الاسلام بينما

(38) محاولة عيش : 36 – 37 .

(39) نفسه : 38 .

(40) نفسه .

الدولة قد اعطتهن اجازة الاحتراف فى الوقت الذى يجب أن تكون فيه حامية الاخلاق والساهرة على احترام العقيدة (4١) .

وهنا يبرز الكاتب التناقض بين القانون وبين القائمين على تطبيقه ، فكثيرا ما ينتهك القانون من قبل الذين صنعوه . فالمواطن العادى لتمسكه بالقيم الاصيله فانه يلتزم بحدود القوانين الوضعية كالتزامه بحدود العرف .

والامريكيون يسعون الى ادخال البلبلة فى العقيدة خاصة عند الشباب ، لأن من سبيل السيطرة على الشعوب أن تفقدوا القوى الاستعمارية مقوماتها .

قال أمريكى سكير لحميد :

« - ماذا تقول فى هل أنا نصرانى أم مسلم ؟

- أنت أمريكى ، كل الأمريكيين نصارى .

كان امام الأمريكى (ساندويتش) من لحم الخنزير . فضم منه شيئا ، وترك بعضه فوق الفاصل الخشبى . أخذ حميد ينظر الى بقايا « الساندويتش » . قال الأمريكى :

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- ألم تأكل ؟ هل تريد هذا ؟

قال حميد :

- هل هو لحم الخلوف ؟

- نعم

- لا آكله .

- لا يهمك ، كله ، حتى تصبح سمينا مثل .

(4١) نفسه .

وبلغته :

(لقد حشوا رؤوسكم بأفكار فارغة ، يجب أن تأكل حتى لا تظل نحيفا مثل معزى) (38) .

فرفض حميد لاغراض الامريكى هو رمز لرفض الشعب لكل ما يمس بأصالته ذلك لأن الطبقات الشعبية هى معدن القيم ، وحصنها الحصين المسبب فى بقائها . وهؤلاء الامريكىون يتصرفون فى الحياة العامة كما لو كانوا فى بلادهم بل فى ديارهم :

« سحب الامريكى السكين عندما شعر بالأمان ، أمسك « غنو » من يدها وأخذ يجرحها ، كانا لا يقويان على المشى .. » (39) . ويحز فى قلب حميد أن كيف يهين امريكى امرأة عربية مسلمة فتثور فيه الحمية فيندفع بقوة الشباب للدفاع عنها : « تحرك حميد أكثر ، وبسرعة أطار السكين من يد الامريكى بقدمه ، جرى نحو السكين ، التقطها وأشهرها فى وجه الرجلين ، افترقا عن بعضهما ووقف حميد بينهما ، ثملقى بجرائده فى حوض « غنو » ، ثم أخذ يضرب فى جنون . سقط المغربي على الطوار فتدفق الدم من جبهته ، انقض على الامريكى بكلمات ، كان هذا الأخير يحرك قبضته فى الهواء محاولا الدفاع عن نفسه ، لكنه لم يكن يقوى على ذلك ، ضربه حميد فى وجهه وبطنه مرات عديدة ، ورغم ذلك لم يسقط الا بعد أن تعب ، حميد انهال عليه بضربة حذاء فى وجهه ، فأصدر الامريكى صوتا مثل صوت الخنزير » (40) .

ان انتقام حميد لـ « غنو » هو انتقام للكرامة المهانة من قبل هذا اللغيف الاجنبى ، وأغلب الظن أن المومس « غنو » هى رمز للامة العربية فى فترتها الراهنة ، حيث ينتهك الوافدون عليها كرامتها من كل صوب ، ويشاركهم فى صنع الاهانة لها بعض أبنائها ، ولكنها برغم العهد الذى رمتها فيه ظروفها السيئة فانها تبقى طيبة كريمة تفيض بمشاعر الانسانية وتمد يدها للمحرومين .

(38) محاولة عيش : 43 .

(39) محاولة عيش : 90 .

(40) نفسه : 90 - 91 .

ج - الواقع الاجتماعى :

يدمشر حميد من واقع الحياة الاجتماعية ، فهو يرى الناس كل يوم فى المقاهى والحانات والمطاعم يشربون ويأكلون ، ولكنهم كانوا قليلا ما يقرأون ، وكانوا قليلا ما يعملون وينتجون .

قال حارس الباكسة لحميد :

« أنت هناك . انزل . الى أين أنت صاعد ؟ »

- سابع لهم الصحف .

- انهم لا يقرؤون ، انزل ، (41) .

فهذا المجتمع همه فى بطنه ، وهمه فى اسكات غرائزه ، ولاقباله على اللذات

صار مطلب المال شغله الشاغل ، فتضحمت فيه الانانية ، وقسا على نفسه ، واحتقر الضعفاء فيه ، مما جعل بعض الشباب الذين التحقوا بمهنة بائعى الصحف ينقلبون بعد عام من شباب مؤدبين لطيفين الى شباب شرسيين : « يتصرفون كأجلاف ، ويتكلمون بطرق منفرة للذوق » (42) . مثلهم فى ذلك مثل الآخرين .

وهو مجتمع ينظر فيه الرئيس الى مرؤوسيه من فوق ، كما ينظر الانسان الى مجتمع التمل .

فحميد - مع أصحابه من بائعى الصحف - يعاملهم رئيس التوزيع معاملة قاسية فيها كثير من الاحتقار والاهانة ، فمن يتلف منهم بعض الصحف عن غير قصد فانه يدفع ثمنها لرئيسه على مدى أيام ، واذا لم يفعل ذلك فان مصيره

(41) محاولة عيش : 6 .

(42) نفسه : 15 .

الطرد (43) . وإذا ما تكمشت الجرائد بفعل الحمل والهز والخط فإن الرئيس يشتم حميدا وأصحابه ، ويتهمهم بأنهم يدفعون الجرائد لبعض الزبائن ليقرؤوها بـقابل ، ثم يستردونها منهم ، وهو ما يسبب - في نظر الرئيس - خسارة لشركة التوزيع .

ولعل ذلك مما جعل حميدا يتمنى أن يكون ماسح أحذية ، لأن هذا العمل حر لا يتحكم فيه أحد ، على عكس ارتباطه بهذه المهنة فإنه كثيرا ما : « كان يسمع الشتائم ويتلقى الصفعات من رئيسه » (44) .

إن رئيس التوزيع ممثل الطبقة العليا ليس له ثقة في هؤلاء البسطاء ، وهو يسند لهم كل الاعمال السيئة الوضيعة ، اعتقادا من طبقته أن الوضيع في الاصل لا يأتي إلا بالفعل الوضيع ، وهذه نظرة اقطاعية ، لأنها تمثل نظرة السيد للعبد ، ونظرة الموسر للمعسر ، ونظرة الفوقى للتحتى (45) ونظرة السابق لللاحق .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قواله حميد برغم أنه قادر على العمل فإنه كسول :

« ينام كثيرا ، وينتظر حميد في آخر الليل ليحصى أمامه أجرة اليوم » (46) .

فالأسرة العربية من هذا المنطلق تنتظر فيها الأغلبية ما يحصله الواحد . فحميد هو المعيل الوحيد لوالديه وأخويه برغم أن أباه قادر على العمل وإن أمه كذلك . ومن أمراض الوساطة والمحسوبية .

(43) نفسه : I3 .

(44) محاولة عيش : I3 .

(45) نفسه : II .

(46) نفسه : I7 - I8 .

فحميد عندما رغب فى بيع صحفه لطايم احدى السفن رغب أحد أصحابه فى التوسط له لدى الحارس حتى يتركه يصعد .

« قال أحد الثلاثة :

– انه ابن حومتنا ، سأتوسط لك عنده .

ضحك الآخرا . وقال الصبى :

– لماذا تضحكان ؟ انى أعرف أمه وخالته تسكن بالقرب من بيتنا » (47) .

ومن الأمراض الاجتماعية الرشوة .

فحميد عندما قررت أمه أن تبني له بركة لكى تزوجه فيها ، فإن المقدم ادعى أن القانون لا يسمح ببناء بركة إلا برخصة . ولكنه عندما أخذ رشوة كف عن الاعتراض :

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« قال الحسن [للبقال]

– لكن لا أدري اذا كان المقدم سيقبل رشوة .

– اضربها على حسابى ، عندما يمر من هنا سوف أتكفل أنا بذلك . هات خمسة عشر درهما (48) .

تناول المقدم خمسة عشر درهما ، طالب بأكثر من ذلك ، تظاهر للبقال بأنه قام بخرق القانون من أجل الصداقة .. وعندما انصرف المقدم ، نادى البقال الحسن ، ضربه على كتفه :

(47) محاولة عيش : 7 – 8 .

(48) نفسه : 17 .

— يمكنك أن توسع تلك البراكة الآن . لن يقول شيئا ، وإذا ما تغيرت الظروف ، ربما حصلنا لك على رقما مقابل رشوة أخرى « (49) . و .. » دفع الحسن رشوة ثانية بواسطة البقال ، لكن [المقدم أكد] أنه لا يمكن السماح باعطاء رقم للبركة .. » (50) . ومن أمراض هذا المجتمع أن المرأة تعتبر من هوامشه . فهي ليست النصف الثاني للكيان الانساني أو القوة الثانية في الانتاج الاقتصادي وانما هي رقيق أبيض يباع في السوق للمتعة واللذة ، مثلما هو حال « غنو » وأمثالها ، أو هي قوة انتاجية معطلة ، تجلس المرأة مع صويحاتها في ظل البراريك يعانيين البطالة أو : « يفتبن بعضهن وياكلن لحم اخوانهن وأخواتهن ميتا وما كرهنه » (51) .

د - الواقع الدينى :

مما سبق نلاحظ أن هذا المجتمع يعيش حالة الانقسام في الشخصية ، فالناس — على اختلاف مستوياتهم — يرغبون في شيء ولكنهم يفعلون شيئا آخر مثال ذلك أنهم يتظاهرون بحب الإسلام واحترامهم مقدساته ، والخضوع لفرائضه ، ولكن كل هذا يبدو هورا ، لأن الجميع يجدفون ضد الدين ، أضف الى ذلك أن الدين ~~تستعمله~~ الخاصة في تقييب الذاكرة الشعبية العامة ، وذلك حتى لا تبقى في حالة الصحو قادرة على مواجهة الواقع مواجهة نقدية حصيفة ، وحتى لا يتظافر الجهد الجماعى الصادق على تغيير الواجهات الهشة الاقتصادية منها والسياسية والاجتماعية .

فالناس على اختلاف مراتبهم يشربون الخمر ، وياكلون لحم الخنزير (52) ولا يصلون ، ومع ذلك فهم يتندرون بمن يقوم بفرائضه الدينية : « لم يكن [حميد] يعرف للرجل اسما ، الا أنه سينغالى أسود . الوحيد الذى لا يشرب في الباخرة ولا يأكل لحم الخنزير ، البحار الوحيد الذى يصلى . كان البحارة

(49) نفسه : 73 — 74 .

(50) نفسه : 80 .

(51) نفسه : 86 .

(52) محاولة عيش : 5 .

الآخرون يتندرون به ويضحكون منه » (53) . فالدين في هذا المجتمع المتعارض
الاهواء ، المشوه القيم ، الطاغية غرائز أهله ، صار تقليدا أعمى يقف عند الحد
النظري ولا يتعدى الى المعاملات . وقد استحال المتصفون بالاسلام الى عباد أوثان
جديدة تتمثل في عبادة الاشخاص والذهب والجنس .

3 - ما تهتم به الرواية :

رواية (محاولة عيش) - كما سبق أن رأينا - تهتم بحياة الانسان البسيط
من ماسحي الأحذية وبائعي الزهور ، وبائعي الصحف بالخصوص وبائعي
الياناصيب (54) ، وهي تهتم بالعمس وبالحمالين وبساكني الاحياء الصفيحية
وبالنازحين من الارياف الى المدن ، وبالبطالين والمتقاعدين وبالمومسات
والقوادين .

فهي تصور حياة هذه الجماعات من فقراء الناس الذين يكبر أطفالهم في
الزمان قبل الأوان ، لأنهم يتحملون اعباء الواجب في سن مبكرة للاحاح
ضرورات العيش (55) . والرواية تحاول - بفضل مجموعة من الغنيات مثل
الحوار والسرد والتحليل النفسي للإبطال - أن تبرز الصورة المشوهة للواقع
الاجتماعي الذي كان فسادة نتيجة من نتائج الفساد السياسي .

والسياسة في الرواية موضوعة في قفص الاتهام ، لأنها هي المسؤولة عن كل
ما يتخبط فيه هذا المجتمع من غيبوبة هي نتيجة الجنس والخمر والمخدرات .
فخوف السياسة من يقظة الضمير الجماعي للشعب دفعها الى اطلاق العنان لكل
ما يغيب هذا الضمير ويقتله . ذلك أن انتباه العقل الجماعي ويقظة الضمير
العام يسيران سيرا عكسيا مع ما ترومه السياسة من المحافظة على مواقع أهلها
ومصالحهم .

(53) نفسه .

(54) محاولة عيش : 50 .

(55) نفسه : 45 .

فاليقظة الجماعية تعنى مواجهة الواقع لتغييره بما يتماشى مع الاخلاق الاصيلة والحرية والحق والعدالة .

والسياسة تسعى قدر جهدها أن تجعل من هذا المجتمع مجتمع الخرافة الذي ينشئت : « بالفقيه الذي يسقط العصافير من السماء بسحره ، ويجعل التفاحة دجاجة » (56) ليأتى المسحور مكتوف الأيدي يبوس الاقدام ويطلب المغفرة (57) .

فهذه الرواية احتجاج صارخ على هذا المجتمع - ضحية الواقع السياسى المنهار - المتسخ اليدين والنجس السراويل والارطن اللسان ، حيث يقلد كثير من أهله الاعاجم فى كلامهم ، فتخرج مقاطع العربية من أفواههم مخلوطة بلكنة أعجمية (58) .

وهى تنقد القوانين الاجتماعية السائدة التى يقدمها الكبار على قد مصالحهم (59) .

وهى تنقد مجتمع الاستهلاك - الذى لا ينتج - المجتمع الذى يعتقد أن المادة هى كل شئ ، وأن : « الفلوس تستطيع أن تحقق كل شئ حتى المستحيلات » (60) . ولذلك يبيع الناس كرامتهم وأعراضهم وأوطانهم لأجلها .

وهى تنقد مجتمع الاستهلاك - الذى لا ينتج - لمجتمع الذى يعتقد أن المادة الطبقات ، مما جعل من الرواية احتجاجا صارخا على الاقرار بطبقة السادة وطبقة العبيد المحرومين المهانين .

(56) محاولة عيش : 100 .

(57) نفسه .

(58) نفسه : 41 .

(59) نفسه : 51 .

(60) نفسه : 75 .

فالفقراء العبيد للحاجة ، المتشبهون بقمم الشعب الاصيلة يكدهون بالليل والنهار ولا ينالون حاجتهم ، بينما المهربون والمرتشون والقوادون وأهل الثراء الفاحش غير المشروع يعيشون حياتهم طولا وعرضا .

ان الحرمان المسلط على هؤلاء الفقراء انحدر بمكانتهم الاجتماعية ، وجعلهم مذبذبين في حياتهم ، مضطربين في وضعهم الاجتماعي ، ونتيجة لما يقاسونه من ذلك كثيرا ما تتولد في نفوسهم دوافع كبيرة ، مثل الميل الشديد الى الانتقام ممن هو افضل وضعا منهم ، او يدفع بهم وضعهم الى السرقة أو الجريمة أو الى نسيان الواقع بالخير والجنس والأفيون .

وقد كان لهبوط المستوى الاقتصادي أثره في تخلف المستوى الثقافي والاخلاقي .

فسكان هذه الأحياء القصدية يعيشون في صراع مستمر مع مشكل القوت اليومي ، مما سد دولتهم أبواب الثقافة وفرد عليهم سبل التثقيف ، فانحط مستوى الأسرة ، وتبعه بصورة حتمية تحدي مستوى النشء : « فالأطفال أصبحوا يتشاجرون في كل وقت كما لو كان قد أصابهم السعار » (61) .

نور الدين بن بلقاسم

(61) محاولة عيش : 76 - 77 .

حكاية « الزرقاء »

حصان أزرق ، بذيل طويل أزرق ، في غابة زرقاء ، غابة فيحاء متعانقة الاشجار ، ، اشجار باسقة تتشابك أغصانها ، أما حدودها فقد ضربت في أغوار التربة الزرقاء .

« اصغوا الى خبب الحصان الأزرق ، يقرع بساط العشب الأزرق » .
« تأملوا الحصان الأزرق عند النبع الأزرق ! » .

عصافير زرقاء تصفق في الفضاء الرحب . يرتاح لنشيدها الحصان الأزرق ، فيجنح ويرتفع في السماء ، يستقر بين أحضان السحب الزرقاء ، فتتدفق حنانا يسيل مطرا يغسل جلده الأزرق .

ويتضخم الحصان الأزرق يرتفع في الفضاء ، يتحدى الطائرات يتجاوز الصواريخ ويحط على القمر ، وتندرج حوافره الصخور ويشع بريق عجيب لحصان أزرق ، يدمر الطائرات ، يحطم المراكب القمرية ، فتستحيل سائلا أزرق

ولما يشع القمر أزرق ، يتحدث أهل المدينة عن خسوف القمر ويتناول بعضهم نظاراته المقربة ، وتذوب النظارات وتتحول الى نقطة زرقاء تندرج كالزئبق . وتتناثر هنا وهناك بين المحيط واليابسة أشلاء « شالنجر » ، ويرتعب الانسان ، ولا يملك تفسيراً ، ويفكر الجميع في حلول الشر ، عدو أزرق يهدد مكاسب الانسان .. ويرتسم الاحباط على الوجوه البائسة كحول الفزع .

★ ★ ★

تنتصب « زرقاء اليمامة » بقامتها الفارعة أمام باب المدينة وقد انسدل شعرها الطويل أزرق .. انسدل سحابة شقافة ترسل ظلالا حاملة على أرجاء المدينة .

ترفع « زرقاء » بصرها وقد أحاطت زاوية عينها اليمنى بكف أزرق ،
تقاصرت ، وتطاولت ، كلولب يتمطط :

- يا قوم ! إنه يترامى لبصري هناك . هناك فى الفضاء البعيد حصان
بديع أرزق يرسل بريقا عجيبا تأفل أمامه الاشياء وتتحول الى سائل مركز ،
أو بعض شظايا متفرقة .

وردد القوم بصوت واحد :

- حصان أزرق ؟!

- بلى ! إلي بكانون من الطين الازرق .. إلي بحفنة بخور من شجر الغابة
الزرقاء !

تحلق القوم حول زرقاء ، وأشرأبت الأعناق نحو الفضاء ، وترنحت
الرؤوس وفغرت الافواه .

جلس « بهلول » حارس مقبرة المدينة القرفصاء .. تملى فى زرقاء ..
فى دوائر البخور تتصاعد الى عتاف السماء .. تتمم فى ذهول :

« إنها تجلو عنها الائمة والعبوس » إنها تجلو لوث الطائرات والاقمار
الصناعية ! » .

وتنبثق من الدخان أسراب من الأجنة المجنحة تهيم نحو الفضاء .. وتتلظى
الجمرات وكان « زرقاء » تبعث فيها همسا غريبا ، ويتضوع من أحضانها
كثيب من دخان .

وصاح « بهلول » مهللا :

- إنه البخور ينفث الحياة ! إنها كرامات « زرقاء » !

رائحة بخور شرقي تملأ الفضاء البعيد .. باقة عطر جمعت من الغابة
الزرقاء تغمر الفضاء ، وترسم علما عجيبا من دخان ..

تردد زرقاء فى ذهول :

- الحصان الازرق يضرب بحوافره الأرض المساء .. ينتفض ! يمد عنقه
ويحرك ذيله .. تأملوا !

ويردد القوم بصوت واحد :

- حصان أزرق ! أين هو ؟

- دوائر البخور تملأ مناخر الحصان الأزرق .. إنه يدور حول نفسه !. إنه
ينجذب نحو الارض ..

ومدت ذراعها نحو الافق :

- هو ذا !

العتمة تتخلل الافق .. لا أحد يرى هذا الحصان الأزرق عدا « زرقاء » .
تشد على ضفائرها المسدلة بقوة وكأنها هي تهم أن تطير ، وتنفذ نظراتها
الجديدة في القوم ، ثم تنسدل جفونها شارة زرقاء . وتتسلل أصابعها لتلمس
مساحة وجهها ثم تنتزع عينيها من محجريها ، تضغط بأناملها على العروق
الزرقاء ، تتساقط على كفها ذرات من حصاد مواسم من الائمة ، ذرتها على
الجهات الست ، وتعيد كل عين الى محجرها بعد ان ضغطت عليها بسبابتها .

ويردد « بهلول » في نشوة :

- إنها كرامات زرقاء ! لقد وقفت عليها في كتب الاولين . فعند العتمة لا
تستطيع كل عدسات العيون أن تميز هذا اللون الأزرق ، اكتحلوا بالائمة !
نظرات خاوية تخامر زرقاء ، وتجد عبثا في البحث عن صورة الحصان
الأزرق .

قال رجل « أول » :

- نحن نرى ، بريقا عجيبا ، أو سرايا بلا لون .. هل هو حقا أزرق .
ولماذا يكون أزرق ؟

وتبتسم زرقاء :

- هو أزرق ، لانه يعيش من الفضاء ، وللفضاء الأزرق ، من النبع
الأزرق ، من الغابة الزرقاء ، ولا يقترب منكم الا عند العتمة .

وقال رجل ثان :

— ولماذا لا يكون أخضر كقصن يانع ، كحبة زيتون خضره ، كحزام
أخضر يطوق جيد المدينة ، وتدركه عيوننا .

وعقب ثالث :

— لماذا لا يكون أحمر ، أرجوانيا ، كلون الدماء المتدفقة تطهر كل شيء ،
كالثورة العارمة الممطرة ، كلون الحرب الاكل ، تلتهم العجز ، تقطع دابر
المذلة حصان احمر تلفظه السنة النيران الحمراء وتولد المدينة جديدة !

فأضاف رابع :

— لماذا لا يكون أبيض .. كالشرع ، كالיום الاغر .. حصان أبيض تنبت
على غرفة حمامة بيضاء وقد تجلببت بيرنس للم اطرافه حول المدينة ،
يحميها من الجبهات الباردة !

واسترسل خامس :

— لماذا لا يكون ورديا ، كالأحلام ، كخدر يسرى في العروق .. حصان
وردي شفاف ، ينبت على غرته برعم وردة يحق شذاها العفونة والثلوث .

قال سادس :

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

— لماذا لا يكون أسود ، كجراحنا التي لا تندمل الا لتشرخ من جديد كريب
الزمان ، كوباء « السيدا » يتغلغل في « الشمال » و « الجنوب » ليؤكد مساواة
الانسان في عجزه ، هنا أو هناك .

وتنتشل « زرقاء » القوم من عنائهم ، وقد تعلق بصرها بالمجهول تهيم
بكشف طلاسمه :

— يا قوم كفاكم تصيدا للكلمات ، لقد انهكتموها ، فانهكتمكم .. هو فقط
أزرق ، هو لون التحدي ، هو لون العجز الذي يغمر أحداقكم ...

وتصمت زرقاء برهة ، ثم تلوح علامات غريبة من بصرها الثاقب :

— هو حصان عجيب ، جواد أصيل ، طوى مسافات طويلة وأتاكم يسعى
عبر العصور والاحقاب ، إني ما زلت أراه منذ غابر العصور ، وأول عهدى
به ، كان في ذات يوم غائم ، وانبتق الحصان الازرق من جذع نخلة باسقة

تطعم رطباً في الفصول الاربعة ، ويجوع القوم ويتأكلون ، دون أن تطول أيديهم أو أبصارهم ثمارها . أما كيف اثبتت فلا أحد يدري !

وما زال ذلك الجواد يطوى الزمن ، ولا يطمئن الا لجذع شجرة و نبع ماء ، هو حيوان غير مائت ، يعيش في الزهور ، والاعشاب الزرقاء ، فتسرى في عروقه دما أزرق ، وينبت روثه أعشاباً وأزهاراً زرقاء .. انها ازهار الخلم .. هي ازهار لن تتوصل جهود علمائكم لمعرفة خصائصها ، أو الى الكشف عن سرها ، وتجلس رزقاء عند جذع نخلة باسقة ، ويدنو منها القوم ، كان كفها يتحرك في الفضاء ، يرسم دوائر وأشكالاً غريبة ، ولا أحد يفهم شيئاً ، وتضيف دون أن تنظر الى القوم :

— يسعكم أن تصنعوا لكم عدسات شفافة من لحاء شجر النخيل فهو المادة الوحيدة التي لا يخرقها بريق الحصان الأزرق . ويسيل كلامها اغراء . ويفكر كل واحد في عدسة صغيرة من لحاء شجر النخيل تكفيه عناء الاحتراق بحثاً عن صورة الحصان العجيب .

ويعدل « شيخ المدينة » نظاراته ويقترب من « زرقاء » :

— هل أن هذه العبدسات الموعودة تحطم العجز ؟ وتضخم الرؤية ؟

وتجيب زرقاء وقد اتسعت أحداقها ، فكانت تحوى الملا بلا عناء :

— تضخم الرؤية ؟ تحطم العجز ؟ اليس هذا موطن الداء ، وينمو عجزكم فيما استجلبتم من سبل مهدة وهي على يسرها أحجبة تمنع عنكم الرؤية .

واعترض « حكيم المدينة » بعد أن انتشل نظاراته بعنف :

— احترز في تهكم « يا زرقاء » . نحن دأب على البحث نحن نرفض الفراغ ، والسبل المهدة وهذه مخابرتنا ، هذه معادنا ، هذه مرادنا ، هذه بيوت حكمتنا تدل علينا . أنت لم تتخطى بعد باب المدينة .. لم ...

وصفق « بهاول » حارس مقبرة المدينة وردد من خلال رقصاته البهلوانية :

— نعم . نعم زرقاء ، أنت لم ترفعى النقاب ، « فتحت الرغبة الصريح » . تقدمي فانت أمام السواعة .. علمي الى مراقصنا ، الى مواخيرنا ، الى

مقابرنا ، الى شوارعنا الخلفية ، ا مزابلنا ! هيا يا قوم ، دقوا الطبول ..
زينوا المدينة ، عطروا المزابل ، املؤوا افواه الاطفال بالبسمات ، املأوا أيديهم
بالالعب الالكترونية المتطورة .. بالاطفال السعداء .. « زرقاء » سيدة كريمة
توزع الحنان على الاطفال ، فيسعى أمامها غلام ويتشبث بذيل ثوبها غلام ،
وتداعب بين أحضانها غلاما وتغير رحمها لينمو فيه غلام ، ويتربع في عينيها
غلام .. وترفرف الاجنة المجنحة فوق رأس « زرقاء » !

وجذب شيخ المدينة « بهلول » :

— اذفوا به في المقبرة ! إنه « أحقق » المدينة . ورغم أن « الحق داء ما له
دواء » ، فمساعى علمائنا ، تجد نحو اعداد دواء مضاد للحق .

قالت زرقاء :

— « لسان الحال أبين من المقال » . ها أنا ذى الملح دأبكم وتشعب السبل
وتداخلها أمامكم . « فأنتم أضيغ من سراج في شمس » وترسلون البصر .
ولكن يعود اليكم البصر مسيرا . وتيقون على غنائكم ولها نكم ولم تكتمل
زينة الواجهة .. لا أدري .. أو « ربما صحت الاجسام بالعلل ؟ » .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

— هل في هذا حكم علينا بالحسران ؟ !

— كلا ! ولكن عسى أن تعتبروا من تعدد السبل ، فيكتمل الاختيار . هذا
وقد قتلتهم خيالكم ، واستلهمتم الجثث المحنطة .. فكنتهم « كالمستغث من
الرمضاء بالنار » . فلتنجدوا الرؤية بالرؤيا .. فيكون السعى .

— وإي سعى يا زرقاء !

— السعى ، تجاوز للسقوف الوطنية التي دفنتهم فيها ذواتكم .. سقوف
وطيئة تنقل هامكم فتنحنى الى الارض .. وتعدون ذلك من علامات الدأب
والاستجلاء . وتقلون البصر فلا تكاد الرؤية تتجاوز موقع القدم هذا وقد
حاصرتكم الجدران الحرساء التي شقيتم من أجل رفعها ، فحجبت عنكم
الافق ، ولم تعودوا بحاجة الى الافق وقد دجن منكم البصر . « ورب حام لأنفه
وهو جادعه » . اصعدوا فوق السطوح ، ان صعب عليكم محق الجدران
الحبيبة الى نفوسكم .. وروضوا البصر !

- ويصبح كل واحد منا زرقاء !؟

- زرقاء ليست خارجة عنكم .. انها تعيش في ذواتكم .. تلمسونها خارج الجدران الجاهزة ، هي تعيش من الفضاء وللفضاء الرحب على مد البصر ! . يا أهل المدينة تذكروا وصيتي الأخيرة :

استعيدوا صورة زرقاء وقد صلبوها بين المغرب والعتمة ارسلوا البصر بعيدا .. بعيدا وسوف تتراى لكم بضمائرهما الطويلة المسدلة على عوة حصان أزرق تهم نحو الافق البعيد وقد أينعت فوق كفي زنبقة زرقاء ، تمتص حقيقتها فراشة زرقاء .

★ ★ ★

ونا اضيئت فوانيس المدينة تبادل القوم نظرات غريبة ، وفركوا عيونهم المرات ، واقترب كل واحد من الآخر يسر اليه بحلم غريب راوده في العتمة . وكان الحلم واحدا . وانحبس الكلام .. وغسل المدينة مطر مدرار ، غسل الشوارع ، غسل الازقة ، غسل الجدران .. غسل القوم .

وقال شيخ المدينة في ثيابه المبللة :

- على بركة الله نفتتح أسبوع النظافة !

وانطلقت قهقهة مدوية ، اخترقت الصمت وغطت صوت المطر . كان « بهاول » جاثيا على ركبتيه عند الناحية الغربية ، كان ينبش التربة المبللة :

- تعالوا نشيد معا ، هنا عند الناحية الغربية للمدينة « باب الزرقاء » .

تبادل القوم نظرات صامتة .

ولما أضاء الصباح ، كانت المعاول والغزوس ، وكان البنائون والمهندسون والرسامون ، أطفالا وشبابا وكهولا .

وردد « بهاول » في حماس :

- وتتحقق الرؤيا ، وتنهذ الجدران .. وتفسع المدينة وتنفجر الدماء في شرايين المدينة ، وتمتد عبر النفق ، وتلهث المدينة تبحث عن المدينة ، ويرتفع الباب ، يتسع .. .

وتتدحرج المباني الشاهقة كالعلب المبعثرة .. فضاء رقراق أزرق ، ينضج عرقا وضجة ..

وعند المساء يتحلق الاطفال امام الشاشة الصغيرة ، يتابعون « مغامرات زرقاء اليمامة والحصان الازرق » ، لقد ألهمت الاطفال الكبار أيضا وعرفتهم عن حكايات « والت دزني » .

ومن الغد كانت البنات والنساء ، يرسلن شعورهن ضغائر موشاة بأشرطة زرقاء .

وعبر الشاشة الصغيرة تحدث « شيخ المدينة » على الاستعدادات الجارية على قدم وساق للاحتفال بمهرجان « الجواد العربي الاصيل » وتحدث الفرسان والبياطرة ، والباحثون عن مواصفات هذا الجواد الاصيل !

ولبس الاطفال مراويل زاهية تحمل صورة زرقاء على جوادها الازرق ...

زهرة الجلاصي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

فتيان وفتيات

يستطيع أحمد أن يرفع صوته عاليا ويعلن أنه أسعد شباب هذه الليلة ،
ويستطيع أن يبتهج ويهتز فرحا ويبقى يقظا سهران الليلة كلها وعبير الفتاة
التي عانقها وضماها اليه هذه العشيبة يملأ له أنفه وصدره وذراعيه .

كل واحد منا كان يتمنى من أعماقه لو كان مكانه عندما انحدرت تلك الفتاة
الجميلة من الجبل !!! كان أحمد بيننا عندما انطلقنا في الصباح الباكر لتتسلق
جبال زغوان ونكتشف طبيورها وأزهارها وحشائشها . وكانت الفتيات من
بيننا في الرحلة ، جميلات مزدهيات كمادتهن ، مختلفات الالوان كازهار الغاب
في بداية هذا الربيع

وكانت تلك الفتاة الجميلة يانعة حقا، زمرة من أجمل زهور الجبل وأشدها . .
وكان أحمد من بيننا في هذه الرحلة وهو الآن سعيد ، بل أسعدنا واعتقد أنه
سعيد في فراشه الليلة وسيبقى سعيدا أياما وليالي ولا ينسى أبدا تلك الفتاة
البديعة الريانة الفاتنة التي فتح لها ذراعيه وضماها اليه واعتقد أن شذاها
سيبقى عالقا بصدره وصورتها ستبقى عالقة بذهنه سنوات طويلة

... كنا بجانبه أو غير بعيد عنه عندما فقدت الفتاة توازنها وانطلقت نازلة
من الجبل صائحة هلعة وتقبلها أحمد بين ذراعيه هكذا كان الشيطان في
المكان الذي يجب أن يكون فيه عندما زلت ساقها الجميلة وانحدرت الى سفح
الجبل وازدادت سرعتها رغما عنها وازداد صياحها وهلعها وروعها ولو لم يكن
أحمد في ذلك المكان ولو لم يفتح لها صدره وذراعيه لحدث ما حدث

بقينا كلنا ، فتيانا وفتيات ، ننظر إليها مشدوهين والمدربون واقفون بيننا ،
لا يستطيعون أن يصعوا الفتاة من السقوط ولا يستطيعون أن يمنعوا أحمد من
ضماها إليه أو أن يتهموه بأنه طوقها بكل قواه وعانقها وضماها إلى صدره طويلا

لا يستطيعون أن يهتموه بذلك كله ، ولا يستطيع المدرب الأول صاحب القيادة والامتياز أن يرفع حاجبيه شبه العريضين ويرفع صوته ويقول : ان أحمد طوق الفتاة بذراعيه ، وعانقها ، وتاه في قبلات حلوة طويلة على مشهد منا جميعا !!؟

لكن بقي المدرب الأول برهة من الزمن ينظر إليها مبهوتا ، مفتوح الفم والعينين ، ثم انقلبت سحنته شيئا فشيئا . ثم اصفر وجهه أكثر فأكثر وابتدأت شفتاه تختلجان . ولم ندر بالضبط فيما كان يفكر ؟ ولا ماذا كان يقول في نفسه ؟ عندما طال عناق أحمد للفتاة الجميلة ، وعندما هجمت هي بين ذراعيه ساكنة لا تتحرك لكننا فكرنا نحن جميعا وغبطنا أحمد ، ثم قلنا في أنفسنا : لو أكثرت الفتيات من الصعود والنزول وكنا في أسفل الجبل لا تبارحه وانحدرن كلهن لتلقينهن بكل ما لدينا من سواعد ولسعدها كما يسعد الآن أحمد .

لكن لم يحدث شيء من ذلك كله . ولم تك تحدث الحادثة وتقع الكارثة وتحل المصيبة إلا لفتاة وحدها ، ولم تتحدر من الجبل إلا تلك الفتاة الجميلة الياقة وحدها . ولم يكن حسن الحظ حليف أحد آخر غير أحمد فوقف لها الشيطان حيث يحب أن يقف ، وفتح ذراعيه عندما يجب فتحهما واستقبل الفتاة الجميلة الفاتنة وهي تصبح هلعمة مرتاعة منحدرة مسرعة في الانحدار رغم محاولة تشبهها بالأشجار المعترضة طريقها والتعلق بأغصانها وارتد متأخرا على صدره فطوقها ففاح عطرها كوردة أو كتفاحة ، وهي مستكينة بين ذراعيه محتمة به من هول الانحدار والسقوط في أعماق الهاوية لذلك يستطيع أحمد أن يرفع صوته عاليا شديدا ويعلن مبتهجا والفرح يتعته قائلا : إنه أسعد شاب هذه الليلة طيلة تربصنا في مركز بئر الباي كان كل منا يتمنى أن يلمس يدا من تلك الايدي الجميلة أو يلمس حتى أصبعها من تلك الاصابع الناعمة الرقيقة لتلك الفتيات !!

وعندما انطلقنا إلى الجبال في الصباح الباكر لهذا اليوم ، كان كل واحد منا يتمنى في قرارة نفسه ، أن تلتفت إليه فتاة من تلك الفتيات ، عندما يتملى وجهها ، أو ترفع اليه عينها ، فيهدى لها كل ما يشعر نحوها من محبة وشوق بكلمة أو ابتسامة أو حتى بنظرة معبرة خاطفة تلمع كلمح البرق . . . لكن المدير والمسؤولين والمدربين كلهم ، لا سامحهم الله ، اشتدوا علينا هذه الايام حتى

صارت الحافلة التي تقلنا من مدينة تونس إلى مركز بشر الباي للتدريب حافلتين ، حافلة للفتيات وحافلة للفتيان ٠٠٠٠

وتنطلق الحافلتان الواحدة بعد الأخرى ، حافلتين دائما أمامنا وحافلتنا دائما خلفهن . هكذا أراد مدير المركز . وهكذا أراد المسؤولون . وهكذا قرروا فيما بينهم في جلسة طويلة دامت ساعات وقيل : إنها دامت ليلة بأكملها والله أعلم ٠٠٠٠ لكن كل الفتيان في حافلتنا يتابعون بأعينهم كلها حافلة الفتيات طيلة السفرة القصيرة ٠٠٠٠ ومن من ناحيتهن ، حين نلتقي في بعض الأضواء الحمراء يلتفتت بعضهن إلينا فنشير إليهن فيجبن بابتسامة محتشم لطيف ٠٠٠ وغالبا لا تسرع حافلتنا عمدا حتى لا تفوت أبدا حافلتهن ٠٠٠ لكن نسر ونشرح عند اقتراب الحافلتين الواحدة بجانب الأخرى رغم أنف السائقين فتنبعث الابتسامات من الناحيتين وتشرق ، وتشر القبلات فتتطاير كالياسمين أو كالعصافير الجميلة من حافلة إلى أخرى ٠٠٠ ونصف مرات ونغني نحن فنشاهد من يصفق ويفنن ويتبجح ونطرب ونود السماع إلى أغانيهن المليحة وأصواتهن الرقيقة العذبة لكن مدير الحافلتين يمنع عنا ذلك فلا نشاهد من خلال النوافذ إلا أفواههن كورود حمراء جميلة تفتح وتغلق بسرعة مغنية ضاحكة ووجوههن متألقة مشرقة . وقد ازدادت بهجة وجوية وعيونهن مزدهية تضحك وأيديهن الناعمة تهتز وتصفق ٠٠٠٠ فنبقى نرمقهن زمنا نعتبره من أجمل الأزمان وأروع ٠٠٠٠ وذلك حين تروم حافلتنا أن تسابق أو تتجاز حافلتين ، عندما يتقاعس أو يتباطأ سائقهن ، أو عندما تروم حافلتين أن ترفع من سرعتها ، وتجتاز حافلتنا فيأبى لها سائقنا ٠٠٠٠

★ ★ ★

بعد ذلك الغناء والطرب وبعد ذلك الانطلاق والانشراح للحب وللحياة والجمال قرر المدير والمسؤولون أثناء جلسة دامت يوما وليلة وقيل : إنها دامت يومين وليلتين كاملتين والله أعلم بذلك وأدري ، قرروا كلهم أن تبتمد الحافلة عن الأخرى كيلو مترات لا تقل عن الخمسة عند الذهاب إلى المركز كل صباح يوم أحد وكذلك عند الرجوع في الساعة مساء ولو كان الليل ليلا والظلام مدلهما حالكا شديد السواد ، وأن تسبق دائما حافلتين حافلتنا ، وأن تخرج دائما قبل خروجنا بدقائق إن لم تقل بربع ساعة أو حتى بنصفها ٠٠٠٠

هكذا صرنا نتجه الى بئر الباي للتدريب ٠٠٠٠ أما إذا وصلنا فاننا نجد المدير والمدرسين على قدم وساق في ساحة الاستقبال ، يترقبون قدوم الحافلتين ويترقبون سكوت المحركين ويترقبون فتح الأبواب ونزولنا في صمت ٠٠٠ ثم تكون الطوابير ٠ ثم يساق طابور الى جهة في الغاب ٠٠٠٠ وتحت عيني المدير والمسؤولين كلهم تنطلق الفتيات في الغاب حزينات كأنهن ذاهبات إلى ماتم أو عائدات منه ، وننطلق بدورنا خائبين كجنود عاندين من الميدان بعدما خسروا معركة ٠٠٠٠ ونشاهدن يتبعدن ، ويتبعدن بدورنا في الاتجاه المعاكس تماما وندخل قاعات الأشغال أو التدريب في الجهة الغربية إن كن في الجهة الشرقية ونتمنى لو لم ندخل القاعات النائية المظلمة في قلب غاب الصنوبر ٠٠٠٠ ولو لم يغبن عن أعيننا ، فالغاب الجميل صار كله ساكنا موحشا حزينا بدونهن ٠٠ ثم نعود ونتمنى من أعماقنا لو طالت الرحلة في الحافلتين وتمادت إلى أقصى البلاد ولو بقينا فيها أياما وليالي ٠٠٠٠ لكنهن يغبن عن أعيننا رغما عنا ، فيثقل حزنا ويحشم بثقله على صدورنا ٠٠ ثم تطوى همومنا وندخل القاعات النائية المظلمة في قلب غاب الصنوبر ٠٠٠٠ ولو لم يغبن عن أعيننا ، فالغاب الجميل صار كله ساكنا موحشا حزينا بدونهن ٠٠٠ ثم نعود ونتمنى من أعماقنا لو طالت الرحلة في الحافلتين وتمادت إلى أقصى البلاد ولو بقينا فيها أياما وليالي ٠٠٠ لكنهن يغبن عن أعيننا رغما عنا ، فيثقل حزنا ويحشم بثقله على صدورنا ٠٠٠ ثم تطوى همومنا وندخل القاعات الفسيحة الرطبة ونستمع إلى المدرسين وهم يفسرون أعمال اليوم ثم نبدا الأشغال ٠٠ ونشرع في الانشاد لكن بدون تلك الأصوات الرقيقة العذبة ٠٠٠٠ ثم نشرع في الرقص ولا واحدة من تلك الفتيات تأتي وتشاركنا في رقصنا ٠٠٠

في آخر العشيّة ندخل قاعة الموسيقى ونعود إلى الغناء والانشاد والمدرّب نصف نائم يعزف على البيانو ونحن نغنى وأصابعه الطويلة الصفراء تنزل بتؤدة وحزن على ملامس البيانو ٠٠٠ يتبعنا أو يسبقنا بالحنن أو يفتح لنا طريق الانشاد فتتابعه ببطء وتناقل وملل ٠٠٠ وتمر الفتيات متهاديات وسط الغاب كمرانس المروج غروب الشمس ونشاهدن من النوافذ ، ونتبعهن بعيوننا وعقولنا ٠٠٠ وتجعل أفواهنا تنفتح وتنغلق بدون انشاد ، والمدرّب منهمك في العزف على البيانو .. ثم يلتفت إلينا ، ثم يلتفت إلى حيث نلتفت .. والفتيات يمررن كالحنّ جميلة ويتبعدن بين الأشجار الكثيفة ، الملتفة الأغصان ٠٠٠

★ ★ ★

وخرجنا اليوم فتيانا وفتيات في رحلة طويلة الى جبال زغوان ، جماعات جماعات ... فان كانت الفتيات فوق الجبال فيجب علينا ان نكون اسفله او تحته وان كن في رأس جبل ، فيجب علينا ان نكون عند رجلية او قدميه . هكذا اراد المدرب وهكذا كنا نتنقل عبر الجبال ونحن نبحث عن الازهار والحشائش البرية والحشرات والخنافس ونحاول ان نسمي الاشجار باسمائها

ثم .. انحدرت الفتاة ، زلت قدمها الجميلة وانحدرت من الجبل .. وازدادت سرعتها وهي هلعة وتستغيث ، واعترض طريقها أحمد وتلقاها على صدره وطوقها بذراعيه فهجمت كطائرة مذعورة ، وسكن روعها وضمها إليه وبقيت الجميلة على صدره ملتصقة به لا تتحرك أمام أعين المدربين كلهم .. وأمام أعيننا جميعا

ثم اقترب المدربون وهما متعائقان وترقبوا أن يفك أحمد ذراعيه عن الفتاة ... ثم رفع المدرب الأول رأسه ونظر الى أحمد طويلا وأوما إليه أن نهج ذراعيك وأطلق الفتاة ... فإشار اليه أحمد برأسه .

<http://Archivebeta.Sakhril.com> ٨٥١

ثم قال له أحد المدرسين :

— هيا فك ، فك ذراعيك وتنم عنها بسرعة ؟

فأجابه أحمد بعد لحظات وبعد ما حاول فك ذراعيه :

$$\dots y, y -$$

واقترَبَ المدربون ونحن ننظر ، ومدَّ المدرب الأول يديه وأراد فك ذراعي أحمد فلم يستطع فأزاد اضطراباً ٠٠ ثم التف حولهما المدربون كلهم وحاولوا فك ذراعه فلم يفلحوا ٠٠٠٠٠٠

ثم سمعنا المدرب المسؤول يقول يا ناسا مرتكبا :

— ما ، ما هذه المصيبة وهذه الورطة ... والكارثة

انطلقنا كلنا ضاحكين وغمرنا أحمد وأشار إلينا بابتسامة
 فازداد ضحكنا ... وازداد اضطراب المدرب ، ثم تحول اضطرابه الى غضب ...
 ثم ازداد اضطراب المدربين كلهم ثم غضبوا بدورهم وركبنا الحافلتين
 البنات فى حافلتهم ونحن فى حافلتنا وبين الحافلتين قام المدربون بمحاولة
 أخيرة للتفرقة بين أحمد والفتاة ونحن نطل من نوافذ حافلتنا ونضحك
 والفتيات يطلن من نوافذ حافلتهم يهتزن ضحكا ، لكن بدون جدوى
 وأخيرا اركبوهما حافلتنا بعد مشقة وبعد اصعادهما وانزالهما مرات من
 الباب الضيق الذى لا يسمح الا لشخص واحد بالنزول أو الصعود الى الحافلة
 وانطلقنا عائدين الى بئر الباي ولم يكف المدرب المسؤول أثناء الطريق ولم
 يئأس بل يحاول من حين لآخر فكهما فلا يقدر ونحن كلنا نكاد ننفجر
 ضحكا

عندما وصلنا الى بئر الباي اسرع المدرب وأخبر المدير فأقبل يجرى
 والمسؤولون يحرون خلفه ، وصاح من فوره عند اقترابه منها :

– هيا فك ذراعيك عن الفتاة وتنج عنها بسرعة ؟

فلم يجبه أحمد ولم يهره أى اهتمام ولم يلتفت حتى إليه ، واقترب أحد
 المسؤولين من أذن المدير فمال برأسه وأنفست والمدرّب يهس له فيها ويوشوش
 ثم فكر لحظات بعدما أعاد رأسه الى مكانه وقال الى المدربين :

– هيا نجذبه من رجليه معا ؟!

ثم جعلوا يجذبون أحمد من رجليه بقوة ، فلم يستطيعوا كلهم جميعا فكها
 منها ثم أرادوا بعد ذلك جذب الفتاة من رجليها بدورها ، فأبست وامتنعت
 وانطلقت ضاحكة وهى تدفعهم برجليها وتسدد لهم ضربات وعندما
 تقبضوا برجليها وجعلوا يجذبونها انطلقت صارخة بكل قواها اذ شعرت بالم
 حاد فى صدرها ونهديها ولم ينته صراخها ويكف الا عندما كفوا عن جذبها
 ومعايتها ... ونحن نضحك ونقول لبعضنا بعضا وحل المنجل فى القلة ،
 ووحلت القلة فى المنجل السلام مسك الختام

فى النهاية قرر المدير أن ينادى طبيب المركز ... وبعد زمن ليس بالطويل
 ثار غبار فى الطريق الرئيسى الطويل بين أشجار الصنوبر ثم شاهدنا على بعد

سيارة الطبيب السوداء مقبلة بسرعة وجنون وهي تجمع ودخلت الساحة بسرعة هائلة ثم أرت أزياء اقشعرت له أبداننا ووقفت بعد عناء أمام باب الإدارة وقرب شجرة من الأشجار العائلية التي تحف بالساحة الكبيرة ، ثم نزل منها الطبيب وأغلق الباب بارتباك وعنف وأقبل علينا مهرولا وحقيته السوداء تتأرجح في يده ثم سأل المدرسين بلهفة :

– أين ، أين هما الخبيثان المنتطعان

ثم انقض عليهما اصطدم في الحقيقة بأحمد وكاد ينطح الفتاة فصاحت لحينها فرعة إذ كان الطبيب قصير النظر وقد نسي نظارته هذه المرة في سيارته أو ربما في داره

وابتداً الفحص مدة طالت وهو يخاطب نفسه بصوت نسمعه لكن لا ندرك الكلمات ثم يرفع صوته أكثر وقال قول الفصل وقول الواثق المعتد بنفسه المزهو بعلمه وبمعرفة وبخبرته ودراسته ودرسته مؤنبا أحمد متهمكا عليه في آن واحد :

– اظن أنك لا تريد أن تتخلى عن الفتاة ولا تريد أن تخلى سبيلها فيما اعتقد ومد يده الى حقيته وتابع قائلا : سنشاهد بأعيننا ونرى النتيجة لتنتطعك هذا

قال ذلك وهو منهمك في فتح حقيته وقد استعصت عليه نوعا ما فخضها مرات وعالجها بقوة وتوتر ثم تابع وكأنه يحدث أحمد بدون ان يلتفت اليه وفي الحقيقة يوجه كامل الحديث الى المدير والى المسؤولين ليطمئنهم ويبعد عنهم اضطرابهم :

– ستتركها حتما ، ستتلاشى كلك وتتخدر أعصابك بعد دقيقة واحدة لا أكثر ولا اقل دقيقة واحدة لا غير .

ثم تابع وعو يملا حقنة طويلة الابرة والحاضرون كلهم أذان صاغية وأعين وأفواه مفتوحة ، ويجلب اليها من أنبوب دواء اصفر في لون الليمون ، ثم رشقها في كتف أحمد الايمن هامسا متهمكا :

— ستترك الفتاة : ستتركها رغم انك ورغم خبتك وحيلك ودعائك ها ...
ها ... بعد لحظات وجيزة ، وبعد دقيقة واحدة لا أكثر ولا أقل .

ثم جذب الابرة بخفة ومهارة وأعادها الى صندوقها فى الحقيبة التى بقيت مفتوحة الفاه بجانبه ... وفرك يديه منتظرا مبتسما مشرق الوجه ، ثم اعار الى المدير التفاتة الواثق وترقب وترقبنا المدير والمدرّبون ... ومضت دقيقة ونحن نترقّب
— لا شيء :

ومضت دقيقتان وثلاث دقائق

لا شيء ، يذكر

ومضت خمس دقائق وعشر دقائق ولم يترك أحمد الفتاة ولم تتركه ، ولم تنهدل أعصابه ولم تنتج ذراعاه عنها ولو قليلا
عاد الطبيب إلى حقيقته وأخرج هذه المرة دواءا حلينا عسيرا يرتقال لكن

ملا به حقنة ثانية اعظم حجما من الأولى وأطول إبرة ، ثم عاد وغرز أحمد من جديد فى كتفه اليسرى هذه المرة بنظم وعيوس واحتق قائلا له وهو يصرف بأسنانه :

— أنت كالحصان الهائج أو كالدب أو الثعلب الماكر أو كالنمس أو كالقط ذى الارواح السبعة أو كالفيل النائر سوف لا أتخلى عنك حتى تتخلى عنها ...
مرت دقائق أخرى جديدة ومرت نصف ساعة ثم ساعة بأكملها :

لا شيء ، لا شيء ، لا شيء الاذرع دائما مشتبكة تكاد تكون ملتصقة ، أحمد دائما متشبث بالفتاة لا يتزحزح عنها والفتاة دائما متعلقة به لا تتزحزح عنه ولا تتركه يتحرك .

اضطرب الطبيب اضطرابا ما بعده اضطراب وعيس وتولى ودخل بعضه كما يقال أو ربما لا يقال ثم قال بعد اليأس والعيوس وبعد دخول بعضه بعضا وقد انتهى إلى الجواب الصحيح والحل الوحيد ملتفتا إلى المدير وإلى المسؤولين ولم يعرفنا نحن أى التفات بل كان يرمى إلينا بمؤخر عينه من حين

لآخر نظرات كانها الشظايا أو الشرر المنبعث لاننا كنا نحاول كتمان الضحك فلا نستطيع قال الطبيب في النهاية بصوت يحاول أن يكسبه الثقة قدر استطاعته :

— هذا أمر عويص ، أمر نادر جدا ولندرته يكاد لا يحدث أبدا لكنه ها هو حدث اليوم أمام أعينكم .

ثم ختم قوله وأغلق حقيبته محاولا إقناع كل الحاضرين بحديثه بعدما اقنع نفسه :

باختصار اتركوهما الآن يستريحان في غرفة مظلمة لا غربية ولا شرقية لكي لا يشعرا بغروب الشمس ولا بطلوع النهار ولا تزعجهما بحضوركم ولا بدخولكم وخروجكم عليهما بل اشعروهما دائما أن الباب موصل من الداخل وأن أحدا لا يستطيع أبدا الدخول عليهما ، آه ، وحذار من الباعوض يجب أن تكون النوافذ مغلقة ، دائما مغلقة ، دائما وأبدا مغلقة لا تنسوا كل ما قلت

ثم رفع حقيبته وانطلق الى سيارته مهرولا واعناق المدير والمسؤولين والمدرسين مشرّبة اليه وأعينهم كلها تتبع تنقلاته صوب السيارة واذانهم كلها مشدودة الى كلماته كلفة كلفة وهو يلتفت ويقول : آه ، بعد ، بعد يوم أو يومين فلعل وعسى !!؟ او ربما بعد اسبوع او بعد شهر او حتى بعد سنة او سنتين او ربما بعد اعوام ورمم كلمات لم تسمع رغم شدة انتباه الاذان كلها

وعاد وانطلقت السيارة في الطريق وصعد غبارها وعجمجت ثم غابت بين الاشجار وهي تشخر وتئن ، وأحيانا تزغرد

فالليلة أحمد هو أسعد شاب من بيننا !!؟؟ يستطيع أن يصبح الخبيث بأعلى صوته قائلا : إنه أسعد شاب هذه الليلة . ويستطيع أن يتهج الشيطان ويهتز فرحا وتمنينا كلنا من أعماقنا لو أسعقنا الحظ كما أسعف أحمد لو كنا كلنا هذا اليوم في أسفل الجبل وكانت الفتيات كلهن في قمته ثم انحدرن بسرعات مستنجدات وتقبلنا هن جميعا وطوقناهن بأذرعنا بكل قوانا وضمينا هن الينا طويلا

محمود بلعيد

إشكالية السعى والفشل في « دهاليز الزمن الممتد »

منطلق نظري

نشرت جريدة « الايام » حديثا لأبي بكر العيادي بمناسبة صدور مجموعته القصصية « دهاليز الزمن الممتد » (الايام 29 ماي 1986) (*) وان كان جزء من الحديث يتعلق بالمجموعة خاصة فان جزءا آخر يتعلق بنظره في القصة عامة . وإذا تعرضنا الى هذه الآراء ، فلن نناقش فيها مدى الصحة أو الخطأ ، اذ الكاتب حر ، في حدود المنطق ، أن يحمل آراء معينة . إلا أنه يعني ألا تتضارب هذه الآراء ، بل تتكامل مع بعضها لتخضع الى نسق يمتد على مستويين : المستوى الداخلي ، واتعنى به تناسق الآراء النظرية فيما بينها ، والمستوى الخارجي ويتعلق بتناسق النص النظري مع النص الادعائي وبهذا النسق المزدوج تحصل لكاتب ما خصوصيات تجعله متميزا عن غيره . وان اشتركت تلك الخصوصيات بين مجموعة من الكتاب ، فانهم يتميزون عن مجموعة أخرى .

المهم أن الحديث المشار اليه يبتدىء بالاجابة عن سؤال حول مفهوم القصة ، فيقول الكاتب : « القصة هي تشكيل حي لوجهة نظر في الحياة ، ولذلك ، فان شخوص قصصى هي مطية للتعبير عن موقفى من بعض القضايا الاجتماعية والسياسية والثقافية . فانا اهتم بالحدث أكثر من اهتمامى بالشخوص لان الشخوص فى نظرى ، لا قيمة لها خارج الاطار الدرامى الذى وضعت فيه ، وان كانت الفئات الضعيفة والشرائح المجتمعية المسحوقة هي التى تشدنى لأننى أعرفها أكثر من غيرها ، وأحس معاناتها وأحاول أن أكون لسان حالها ، لان فى الدفاع عنها دفاعا عن انسانية الانسان » .

(*) دهاليز الزمن الممتد (قصص) أبو بكر العيادي نشر دار الرياح الاربع تونس 1986

فالقصة تعتمد أساسا عناصر ثلاثة : القضايا ، وموقف الكاتب ، والشكل والتلاحم ضروري بين هذه العناصر ، وضرورته من طبيعة تواجدها ، فالقضايا تشكل مصدر الموقف من ناحية ، وغايتها من ناحية أخرى ، والموقف لا ينبع من المجرد ، بل من واقعه ، ولا يستقل عن واقعه بل يعود اليه لينسج معه العلاقة الجدلية بين الفكر والمحسوس والشكل هو التجسيم لهذا الحضور المترابط .

حقا ، ان الكاتب لا يشد نفسه عن الاتجاه التقييمي ، فاذا به يفاضل بين هذه العناصر الثلاثة في منزع نحو التقليل من أهمية الشكل ، وهو تقليل لا يكون في طبيعة العلاقة ذاتها بل في ذهن الكاتب ، أي ان الشكل حاضر بطبيعته ، ولا يجب أن يتميز بحضوره الى درجة يذيب معها عنصرى القضايا والموقف ويستحوذ على ذهن القصاص .

إن هذا الموقف ناتج عن المنطلق النظري حول مفهوم القصة ، ولكنه أيضا اجابة ضمنية عن قضية تشغل الأدب التونسي الحديث ، وهي العلاقة بين الشكل والمضمون ، حيث تطورت بعض النظريات الى فرض الشكل كائنا مستقلا بذاته في اطار هيكلية شكلانية ، وبرزت ددوس تعليمية ونصوص نقدية لاطهار هذه الخصوصية ، عن قصد أو غير قصد .

ولذلك ، ونتيجة لرفض الشكلانية ، يحدد أبو بكر العيادي « غاية » للقصة وهي « الدفاع عن انسانية الانسان » . هذه العبارات كان حملها الفكر الاوروبى فى القرن التاسع عشر ، والأدب الوجودى فى القرن العشرين ، وتعامل معها النقد الماركسى انطلاقا من لوكانتش تعامل انتقاديا مبرزا دورها التضليلي . وان وجدنا الآن نفس العبارات فى خطاب العيادي ، فقد اتخذت لنفسها مصدرا مغايرا ووجهة مغايرة ، كانت تنطلق من شريحة بدأت تفقد قوتها ، وتتعلق بقضايا عامة مجردة لتذويب الفوارق ، وصارت الآن تنطلق من شريحة صاعدة تسعى الى تثبيت كيانها الاجتماعى ، فاذا بالقضايا اجتماعية واقعية ولذلك أشار الكاتب الى « الفئات الضعيفة والشرائح المجتمعية المسحوقة » مبرزا علاقته العضوية بها ، وعن هذه العلاقة تتلون أقاصيصه معنى وشكلا .

واقعية أم تاريخية ؟

بهذه المنطلقات النظرية تتحدد بنية ذات عناصر متلازمة فى علاقاتها ، فلا تكون مفتوحة الى حد التسيب والمجهول ، بل محددة تحديدا قوامه الانتماء .

وان أشار الكاتب في حديثه الى الانتماء على المستوى الاجتماعى ، فانه فى الحقيقة تعدى ذلك فى أقاليمه حتى الى المستوى المنهجى والاسلوبى . فقد حرص على تاريخ قصه كتابة . وامتد فى ذلك من 12 - 9 - 1980 الى 4 - 1 - 1983 ومقارنة بين تاريخ النشر الاول فى الصحف وتاريخ النشر الثانى فى الكتاب تبين لنا أن العيادى بقى أميناً للنص المكتوب ، فلم يغير منه شيئاً . بل وانك تعثر فى الأقاليم على إشارات مكانية « بنزرت ، باردو » ص 41 - 44 . وان شحذت ذهنك بين أحداث القصة وأحداث التاريخ ، أمكن لك استحضار الوضع السياسى فى بداية الستينات . ومثل هذه الاشارات قليلة ولكنها على كل ، تنسجم مع المنطق النظرى للكاتب حول القصة ، إذ إنها تلغى كل جذر أسطورى للأحداث ، فتتجاوز فكرة « المطلق » حيث اللامكان واللازمان . معنى ذلك ، ان التحديد المكاني ، إن وجد ، يؤدى دلالة فلسفية ، ولا يحمل بتاتا دورا تسجيليا أو تاريخيا جامدا ، وبذلك يكون مجرد وعاء يستجيب لمقتضيات فنية . وهكذا لا تكون « باردو وبنزرت » إطارا عمرانيا محددا اكتسب أهمية بأحداث تاريخية محددة ، بل انه اختزال لوعى جماعى تطور فيما بعد تطورا غير سوى ، إذ حول علاقة الشخصية الرئيسية بالمحيط من الانسجام الى الحلل . وهذا الحلل هو الذى حتم حضورا فنيا للتعبير عنه من ناحية ، ومحاولة تجاوزه من ناحية أخرى . كل ذلك حوصله أبو بكر العيادى فى قوله : « الفن تلميح لا تصريح » (الايام 29 ماي 1986) . وتفسيرا للقول ، فى إطارها العام ، فان الإبداع القصصى ، من منطلقه الملتزم ، لا يشرف على التاريخ ، يستمد منه الموضوع ليحصل صاحبه على ضمان ، ويشعر باطمئنان . فالماضى لا يستقل بذاته ، ولكنه يمتد الى الحاضر ليكون معه عالما متشابكا . والماضى ان استقل بذاته ظهر تافها ، مجرد حدث وقع وانتهى وكذلك الحاضر ، مجرد لحظة تعاش ، ونعرف أنها ستزول ، ولكن القصة تتبع بوجود كائن بشرى يربط بين هذه المتغيرات ، فيعيشها ويتعرض الى متناقضاتها .

المواطن من هو ؟

ولان القصة تنفى عن نفسها المطلق والاسطورة ، وتتمحور حول الانسان كائنا اجتماعيا ، فانها تحرص على تحديد انتماءات أبطالها « فلا أحد يظل بلا انتماء » ص 95 . وكيفما كان نوع هذه الانتماءات ، فهي على كل تتحدد بين

عنصرين متكاملين : أرض ومجموعة بشرية ، وعنها يتشكل الوطن . والحق أن هذه القضية ظهرت الينا طاغية في المجموعة القصصية ، تجدهما تلميحاً « أوراق الهوية » ص 6 ، وتصريحاً : « المواطن » ص 32 ، « المواطنين » ص 8 ، بل وإن إحدى الأقاصيص تحمل عنوان « حكاية المواطن عبد الخالق » ص 93 . كما تستنتج القضية أيضاً عصارة لأحداث القصة وتطورها .

كان السؤال واحداً : من هو المواطن ؟ وكثرت الأجوبة ، واختلفت . وكثرة الاجوبة واختلافها يعودان الى الحاح السؤال . او لنقل ان الحاح السؤال يعود الى انتفاء جواب واحد قار . والسؤال لا يطرح من منزع نظري مجرد ، والا لكان جدلاً متعالياً ، بل من احتكاك على أرض الواقع ، وعلاقات بين الفئات وتشابك المصالح . ولذلك نفهم لماذا لا يتحدد الجواب من المطلق النظري ، بل من المتغيرات أو الانتفاعات ، والتطورات بين الافراد والاحداث . فالعمل مثلاً طرح مقياساً للمواطنة : « العمل وحده يمنحهم حقهم كاملاً كمواطنين » ص 8 . وقد يكون ذلك صحيحاً لأن الشغل يؤدي في نهاية الامر الى تجسيم الانتماء العضوي بالوطن وخدمته . ولكن أمام هذه النتيجة العامة ، يبرز دافع فردي يتعلق بمنزعة الانسان نحو سد الرمق وانتشيط بالحياة ، وبالتالي يصير الشغل هماً فردياً يكسبه قيمة ظاهرة . فكيف يكون الحال ان قلت فرض الشغل أمام هذا الالحاح على الشغل ؟ عندئذ تنبع مقاييس مختلفة ومتضاربة ، منها الجنس : « وتعود كل يوم خائباً رغم سهولة شرط الانتداب : فقط أن تكون فتاة » ص 7 ، ومنها القرابة ، « ابن الفاجرة ، فضل عليك قريبه العائد من المهجر » ص 76 ، ومنها الشهادات العلمية : « قال يلزم الشهادات » ص 77 .

وحتى التاريخ لا يتخلف عن صياغة المقياس ، بل لعله يستأثر به « تعرف من صار سفيراً لانه صفع بوليسا ، ومن أسندت اليه أمانة أو كتابة لان بوليسا صفعه » ص 77 . وإذا تجاوزنا الأحكام التقييمية ، تبدو الأمور منطقية ، فالمهم ضبط المقاييس ، بقطع النظر عن طبيعتها . الا أن هذا المنطق يختل باختلال التطبيق فتشغيل فرد لشهائده الجامعية يتعارض مع تعيين آخر أميناً أو كاتباً لان بوليسا كان صفعه . ثم ، وإن تغلب المقياس التاريخي على المقياس العلمي في هذه الحالة ، فلماذا يغيب الآن مع أفراد آخرين يلهتون وراء العمل ولا يجدونه رغم « الجندرمة ، المتاريس .. الكلام الذي يسلمج الجلد .. الزنزانة .. الليالي البيض على البلاط الأملس البارد » ص 77 .

ولكن ، ورغم كل ذلك ، يبقى المقياس التاريخي مهمنا • ويكون « العمدة » فى قصة « توقيعات شهود عيان » تجسيميا نه ، إذ فرض لنفسه مكانة فى الحاضر بما كان قام به من أعمال « بطولية » فى الماضى ، وهو الآن ، منزلة خاصة فى القرية ، والكل يقيمه تقييما أخلاقيا حسنا ، حتى أنه لا يشك أحد فى أقواله ، ولا تقع دعوته الى مركز الشرطة للتحقيق فى جريمة قتل رغم علاقته بها • وتكشف لنا القصة فى الأخير عن عملية اغتصاب للتاريخ ، فقد كان العمدة جرح نفسه لكي لا يشارك فى القتال ، ثم ادعى بعد ذلك اصابته فى المعركة • واستغل الجرح ليصنع حاضره •

السعى والفشل

وفى هذا الاطار تتفاعل كل الاقاصيص لتبرز جوا مأسويا يعيشه الابطال • ولم تخل الاحداث من حضور شخصيات تسعى الى التغيير ، إلا أنه سعى ينتهى الى الفشل ، فيكون حضوره موطفا لتعميق القناعة • وظهرت اينما أسباب الفشل متمثلة فى عوامل عدة أهمها الهيكلية الاجتماعية ، إذ تقف نواة العائلة حاجزا أمام التغيير ليذوب « المتمرد » فى حدودها فيتخلى عن المسيرة ولا يفكر إلا فى انقاذ زوجته وأبنائه (قصة موجة هادئة) • وإن كان ذلك ضربا من الانانية ، فانها تظهر أكثر عمقا بانحراف المثقف عن طموحات المجموعة الى طموحاته الذاتية رغم ضعفها • فبطال الحكاية المزعج العارى ، دخل الى قصر السلطان ضامرا وفى نيته أن يعرض عليه آراء « ثورية » لتغيير الوضع • إلا أنه خرج من القصر « يدفع بطنا ويجر آلية » دون أن يشد يديه على الانتصفيق • لقد غير الطعام والجنس • إذ « اتسعت حدقتاه وهو ينظر الى الطعام » ص 48 و « أفاق على صوت عذب يمس كلاما هو السحر فى أذنيه ، وأنامل رقيقة تداعب رأسه وساعديه • شعر أسود فاحم منسدل على الكتفين ، وعينان دعجوان ، وثغر مفتر عن ابتسامة حلوة ، ومفاتيح بضة تبين من تحت غلالة وردية » ص 49 • إنها نظرية ابن خلدون حول « لذة البطن والفرج » ولكن فى وضع معكوس ، فهى اللذة الناتجة عن حرمان من ناحية ، والتي تطلب قبل أن تطلب الحضارة من ناحية أخرى • يضاف الى ذلك تضارب القطب فى الهيكل الاجتماعى ، ونفى الآخر أن حاول تغييره ، أو حتى نفيه قبل أن يفكر فى التغيير • وقد وظف أبو بكر العيادى قصة « حكاية المواطن عبد الخالق » لاطهار هذه الناحية • وكلمة « المواطن » هنا ، تعنى الانسان العادى ، والاسم نفسه يؤكد على أنه عادى ، بل وصفاته وأحداث القصة تلج على ذلك • ولأن من حركية

الواقع ، ومن فنيات القصة أن الشخص العادي لا حضور له ، فإن مشكل عبد الخالق يبدأ من لحيته الكثنة .

هو يأخذها مأخذاً عادياً ، والقصة توحى بأن لها دلالة هامشية ليس إلا . ولكن رموز « السلطان » تحملها محمل الجدة ، وتضفي عليها بعداً سياسياً . ويبقى المطلوب تحديد انتمائها الايديولوجي إننا اذن أمام « سوء تفاهم » ، وهو أداة فنية يمكن أن تطور الأحداث في اتجاه عزلي أو تراجيدي وإذا « بالمواطن عبد الخالق » يتطور في اتجاه بطل موليار ، هو الشخص الذي يبكي في ذاته ، ولكن ببكائه يضحك الآخرون ، فيقرر أن يتخلص من الشعر العالق بكامل جسمه ، حتى بتلك « المواطن الحساسة التي لا تدركها العين » ص 99 . فقد قرر إذن أن يتخلص من رجولته . وبهذا الالتقاء بين الضحك والبكاء ، بين الرجولة وعدم الرجولة ، تلتقي كل الطرق وتستوى ، فتؤدي الى العبث ، وعلينا ألا نغتر ، فلا نفهم فكرة العبث في بعدها الوجودي ، فهي لا تنبعث من علاقة بالكون ، وبالتالي من المطلق ، بل انها افراز عن علاقة فئة من الناس بالمجتمع ، وبالتالي عن الانتماء . قالت إحدى الشخصيات تحدثت الى نفسها : « خط الشيب سالكك ولم تقتطف مباحج الحياة بعد ، لا زوج ولا عيال » ص 79 . فكانه يجسم في أسلوبها يمكن أن نخترله في استفهام انكارى : لماذا الفشل بعد السعي ؟ والحق أن قصص « دهالين الزمن الممتد » تلتقى في هذه الناحية مع أغلب القصص والروايات في الأدب التونسي الحديث . وحتى تلك التي صورت النجاح ، فانها جعلت من الماضي اطاراً لأحداثها ، أما المستقبل ، بمعنى الايجابية ، فقد انتفى .

إن الكاتب لم يعد يحلم . ولم يعد يدعى لنفسه ذلك النبوغ الذي يميزه عن المجتمع فتنبأ له بمستقبل باسم ، وبالتالي لم يعد يردد الشعار القائل بأن المثقف هو من ينتمى الى مجموعة ويعمى أوضاعها ويعانيها ويعبر عن طموحاتها، ولكنه يفتح لها الباب نحو السعي والنجاح . معنى ذلك أنه يتميز عنها بالحلم .

لقد حدث إذن تنازل عن الحلم . وان قلنا بأن الأدب ليس كتابة تقريرية ، بل يحمل رسالة ، أمكن لنا التفتن الى خطورة هذا التنازل .

هل يعود ذلك الى أن مراة الواقع تعمقت بدرجة انتفى معها الحلم من المجتمع عامة . والكاتب فرد من المجتمع ؟ وان كان الجواب بنعم ، فأى وظيفة اذن تبقى للأدب ان لم تقل للفكر ؟

حوار بين « ريم العيساوى » تونس و « ضياء قصبجى » سوريا

س 1 - بطاقة تعريف

ج - انسانة ولدت فى حلب ، وحلب من أقدم مدن العالم ، وهى الآن المدينة الثانية فى سوريا بعد دمشق .. تتوسطها قلعة أثرية كانت عسى المدينة فى عهد غابر .. وقد اختارتنى الافكار مأوى لها لآكون كاتبة ، تعيش مع الناس بكل دقائق حياتهم ، وفى يدها القلم الذى يحكى لهم ما يتوقنون الى معرفته ، وتصور لهم بألة صغيرة لا وجود لها ، عوالمهم الداخلية .

ضياء عضوة اتحاد الكتاب العرب - دمشق منذ عام 1973 .

فلقد كنت اكتب قصصا ونثرا فنيا ومقالات أدبية فى الاسبوع العربى - الاديب - الضاد - وغيرها ، ثم نشرت لى على مدى السنين غالبية الدول العربية ، بل كلها خاصة مصر - الكويت - الامارات - وتونس ..

س 2 - المؤلفات :

ج - ارسلت الى سماء الادب الرحبية خمس مجموعات قصصية ورواية واحدة . عناوين المجموعات القصصية الخمس على التوالى :

- | | |
|---------------------------|-----------------------|
| 1 - العالم بين قوسين | عام 1972 منشورات دمشق |
| 2 - القادمة من ساحات الظل | = = حلب |
| 3 - جسد يحضن الحب ويبتعد | = = دمشق |
| 4 - أنتم يا من أحبكم | = = بيروت |
| 5 - التوغل فى عمق الغابة | = = دمشق |

ولقد طبعت لى ليبييا المنشأة العامة للنشر والتوزيع والاعلان - طرابلس ..
 أول رواية لى وعنوانها (امراة فى دائرة الخوف) وانا شاكرة لها تشجيعها
 هذا .

وقد كنت وما زلت بحاجة لآراء النقاد بها ، حتى أتمكن من هذه التجربة
 الجديدة ، وأكتب رواية لا تنسى وهذا ليس على حساب القصة القصيرة ..
 فالقصة حبيبتي ، والرواية رفيقة جديدة لى .

وعسى مدينة لمن كتب عنها بالخير ، كما كانت أول مجموعة قصصية لى
 مدينة لمن رعاها بروحه وقلمه ، ولعل النقاد الأحياء يعرفون مسبقا مدى
 اهتمامى بأرائهم ، فأنهم لا يهتمون ما أكتب ، وإننى سعيدة بأن كتبى
 تسبقها وتتبعها هالة ضوء قزحية .

أكتب أيضا شعرا منثورا ، بالاحرى نثرا فنيا ، (فلقد أصبحت أكره كلمة
 شعر ، لما فى هذه الكلمة من مشاحنات وحروب بين الشعر المقفى المندثر
 والشعر الحديث المتألق) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

س 3 - حديث عن التجربة القصصية

والروائية ؟

ج - أنت أيتها القصة القصيرة ، نعم أثير أعزف من خلاله اغنيات
 القلب .. وقضايا الروح ... ولواعج النفس .. بك أهدم تراب
 وطنى .. وبرتقال يافا الضائع .. بك أشهد أنار الفراغة الحجرية دامة
 العينين .. والمسلة مسجاة بلا حراك .

بحروفك تنقشين نقوشا عربية خالدة ، على واقع حزين أكثر حزنا وجمودا
 من الحجر .

بحروفك النيرة أيتها القصة ، أكتب ما أريد كتابته .. وبصفحاتك
 الرحبة التى لا تضيق عن أي موضوع كان مهما كبر أو صغر .. أعبر عما

يدور في أفق من عذابات .. وأفراح ، وارتباكات أعبر عن لقاء حار ،
يشبه وردة حمراء .. ووداع باعت ملفوف بوشاح أصفر .

– أما أنت أيتها الرواية .. فساحة ملعب كبير يكون الكاتب فيها كاللارد
الساحر ، يحرك الإبطال والاحداث بعصاه السحرية أي موهبته .

أو أنها أرض صحراوية ندق فيها عصي الخيام العربية .. نقص الحكايا
الشيقية .. ننظر الى القمر ليلا والشمس نهارا ، نقطع عمرا وتاريخا ومكانا
محددا ابتداء وانتهى .. ونحن ندور في رمال هذه الصحراء .. ولا يستطيع
القارئ الدخول الى هذه الساحة الا اذا كانت في هذه الاطالة ما يلهب صدر
القارئ شوقا الى المتابعة .

واذا كان لا بد من رأي ومقارنة بين القصة والرواية ، فكتاب مجموعة
قصصية تحتوي على عشرات القصص ، كل قصة تظهر بحلة مختلفة عن
الآخرى وتعالج موضوعا يختلف عن غيره ، لهو حتما أكثر موهبة وبراعة من
كتاب قصة واحدة يحددها الزمان والمكان وتحتاج الى وصف ، ودقائق
حذفتها القصة القصيرة الى مس الجواهر .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

س 4 – الحياة الادبية في سوريا ١٠٠

ج – تصعب على الاجابة عن سؤال يحتاج الجواب اليه الى دارسين
وكتب واحصائيات ولكن .. يخيّل السي .. لا بل أجزم أنها بالف
خير ، فاتحاد الكتاب العرب – وهذه تسميته ، « فلا ذكر في هذه التسمية
للسوريين » ، ومكانه دمشق ، له نشاط موسع ، ف مؤتمر سنوي يقام فيه
لاعضائه ، تناقش الآراء ، وتطرح الأفكار ، وهو يطبع الكتب وينظم الوفود ،
ويقوم الامسيات الادبية لا بل انه يعنى بالاديب السوري من ناحية السكن
والصحة .. بل ويكرم الكتاب الكبار ، واذا تعثر ببعض الاخطاء ، فالجميع
يسعون لتحقيق وضع أقرب الى المثالية .

وأنا أحصر الحركة الادبية في سوريا من خلاله فقط فكتب قيمة أخرى
تصدر لكتاب سوريين في دول عربية أخرى أو على حسابهم .. وكتاب
كبار لهم مكانة عالمية ليسوا أعضاء فيه ك د . عبد السلام العجيلي مثلا .

وعليه ، فكتب لا تعد تصدرها المطابع ، وأمسيات لا تتوقف تنشر عطر
الفكر بين الذواقة ، وبحوث نقدية قليلة نوعا تنشر .. وأستطيع أن أقول
أيضا : إن القصة والشعر الحديث في مكانة عالية .. ومروقة .

س 5 - كيف وجدت تونس يا ضياء ؟

ج - صدقيني هو السؤال الفريد من نوعه الذي لم أسأله .. واعذرني
إذا اقتضيت كل الاجابات للوصول الى هذا الجواب « فالحبيبة في طريقها الى
من تحب تختصر كل المسافات » .

وجدت تونس الحاملة تغفو على شواطئها الابيض بجلتها القشبية .
وجدت غزلانها البيضاء وقممها السماء .. ومياهها الزرقاء .. « نظرت الى
شبابيكها المزخرفة ، كان كل شابك تجلس خلفه عاشقة تنتظر حبيبها
وملامح وجهها الاسمر تنادي سمرة » . فنان هو ذلك الذي ، صنع البيوت
باللون الحليبي الصافي ، ونوافذها بلون زرقة البحر والسماء .. فنان هو
ذلك الذي اضاف الى جمال « سيدي بوسعيد » مقصفا خاليا من الكراسي
والمناضد ، يخلع الزائر عليه ، ويصعد الى تلك المصطبة العريضة ،
المغطاة بالحصر ، يطلب القهوة فتوضع امامه متضدة خضراء صغيرة
ذات حواف ، يحتسيها وهو ينظر الى تلك القسقية الجميلة وهاتيك المكتبة
المزدانة بالتحف ، وفي الوسط شبه بركة كبيرة محاطة بعواميد خشبية ،
واذا نظر الجالس من تلك النافذة العميقة المدى التي يستقر فيها أصيص من
زرع طبيعي اذا نظر الى نهايتها التي تضيق وتضيق ثم تنفرج عن زرقة
البحر فيها وعلى صفحته السفن التي تقلع الى باريس وغير باريس ..
كنت سعيدة في « قرطاج » التي استقبلتنا بزهر الدفلى على الطرفين .
وكنت على جناح الفرح في سوسة القنطاوية المدينة البيضاء التي يتداخل
البحر فيها وعلى صفحته السفن التي تقلع الى باريس وغير باريس ..
وكنت مندهشة في بلد التاريخ العريق (القيروان) وفي مسجد « عقبة
بن نافع » وفي أزقة نابل ، وأروقة الحمامات ، وعلى شواطئ بنزرت ،
وفي أسفل النصب المقام مقبرة الشهداء .

هذا بالنسبة للطبيعة ، اما الشيء اللافت للنظر والمميز في تونس فهو
أمور كثيرة استحوذت على اعتمامي .. الملاحظة الاولى حسب التونسيين

العرب للعرب غير التونسيين وتفضيلهم اياهم على الاجانب ، وهذا مع كل اسف غير موجود ففى بلاد عربية اخرى ، مرات عديدة قدم لى الباعة امام المساجد او الاماكن الاثرية ، مبيعاتهم ويكلموننى باللغة الفرنسية الطليقة بثمان ما ، فارد عليهم بالعربية قائلة ، انا عربية لست اجنبية ، فيرجبون كثيرا ثم يخصمون نصف الثمن مباشرة .

الملاحظة الثانية هى معاصرة التاريخ ، او التعايش مع الآثار ، ولو انى يادى الامر لم استوعب ذلك ، فالذى أعرفه ان للآثار قدسيته وأنها لا تمس وشىء من هذا القبيل لكننى بعد حين أعجبت بمركز الحمامات مثلا مقرا المؤلف فى حالة تأليفه كتاب ما او هو مركزا للثقافة ، يستقبل المهتمين بالادب والادباء .. وفيه تلفاز وسرير وكل ما يلزم انسانا معاصرا يتمتع بموهبة التأليف .

والملاحظة الثالثة ، هى هدوء الشعب التونسى بشكل لافت للنظر ، خلال اسبوع كامل من خلال احتكاكى المباشر مع الادباء أولا ، وفى امسية نقدية شعرية ، لم اسمع ذلك الانفعال النوق والرودود المشحونة بالتوتر الاغاطة والانتقام .. بل كانت الردود متعلقة ، لم تترك أثرا لجلاف (هذا ما بدا لى) على الاقل ، وفى تعاملى مع العاملين فى « نزل البحيرة » لم أعامل سوى بالدقة فى اىصال الرسائل الشفهية التى تترك لى لديهم مكتوبة كما هى تماما .. والاحترام بتلبية الطلبات .. بل والصبر الكبير من العاملين فى المطعم على الطلبات وفى سوق تونس العربى .. الذى قال رفيقى الرائع حافظ الجمالى ، ألا تشعرين أنك فى سوق المدينة فى حلب ؟ فعلا أحسست بذلك ، اسواق ضيقة بعضها مسقوف من الاعلى وبعضها مكشوف الى السماء ، مما يجعلها أكثر ضوا .

المهم لم أجد أحدا يحتد ويفضب ، لم أسمع صوت شجار يرتفع فى أي مكان .. لم أشهد منظر اثنين يتضاربان فى الشارع وآخر يزج نفسه بينهما يخلصهما (وهو منظر مألوف) .

هكذا وجدت تونس ، وهكذا أحببتها ، وارتحت نفسيا بكل لحظة عشتها فيها .. وأضيف أننى أحب كل البلدان العربية التى شاهدها .. فلقد سبق أن عشت الجزائر وطبيعتها الخلابة .. كما كنت مغتبطة فوق ما

يمكن فى مصر وشوارع القاهرة ، وكهوف الفراعنة ، (وذلك قبل ان يطأ اليهود ارضها) • واحببت كذلك بحر بيروت وصحراء السعودية • واتمنى مشاهدة ما لم أشاهد منها • فكل دولة عربية جزء من دولة عربية كبرى •

• وشكراً •

قصة تاريخ 9 نيسان 1985

فى البادية الموحشة .. حيث لا شئ سوى كتبان الرمل .. نباتات الشوك •• كان هناك نبع •• تتدفق منه المياه ساحرة جذابة ، تروى ظمأ الرمال المحترقة تحت أشعة شمس الصيف الملتهبه •

على الرغم من قساوة الصحراء •• وجفاف جوها •• وبالقرب من النبع •

كانت هنالك سوسنة ••

فمن ذا الذى يحفل ببعث النبع الجيبيل ••

بهاتيك السوسنة •• ؟؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

النبع يأتلق •• ويندثر بالسحر والجمال •• كل ظامئ ينهل من عذوبته .. كل غابر يفتسل بمائه •• كل حالم يجلس متأملاً حركته الدائبة وجماله الفنان •

لم يرد وارد يوماً ، فينظر الى السوسنة ••

فمن فى زمان العطش •• يحتاج إلى سوسنة ؟••

كان النبع « ملك البادية » يزداد بهاء وعطاء وجمالاً

وكانت فى الظل تزدوى السوسنة ..

انتبهت ذات صباح على تفريد بلبل ، سمعته يسألها عن الذى قدمته لمنبتها المحترق بنار الغدر ، المغطى برماد المأسى •• فأطرقت خجلى •

سألها البلبل .. عم بإمكانها ان تقدمه لهذه البادية ؟ فصمتت . ثم تحول صمتها المديد الى أفكار ، ومبادئ ، وقيم . ولم تكن تدري ان تعلقها بمنبتها يفوق تعلقها بذاتها ووجودها .

ثم وبغفوية مطلقة .. قررت أن تغوص في منبتها وتتحول الى جذور في تربته ، بدل نبتة تقتص منها الريح ، ويسخر منها الجبابة .. رأت من خلالها فلسفتها الخاصة ، انه اذا لم يكن لحياتها قيمة كما ادعى البلبل .. فلا شك ان بغنائها قيمة لا تعادلها قيمة .

فكرت السوسنة .. نفذت السوسنة

دفنت شبابها في أعماق التربة ، احتجاجا ، وثقايا .

حينئذ ضجت البادية .. بكى البلبل .. وجف النبع .

حينئذ كل شيء مات ..

وعاشت السوسنة .

على أول شهيدة سخرت نفسها قدا للوطن في لبنان <http://www.sana.com.lb> سناء محيدلى «

بقلم ضياء قصبجي

سوريا

اجرت الحوار بنت المنجم

مقبرة الجوع

خرجت من بيتك ولم تسر في طريقك كما تعودت .. تركتها خلفك ..
ابتعدت عنها .. قلت في نفسك : « لن أعود إليها .. لقد سرت فيها سنوات
طويلة ولم أجن من ذلك غير المتاعب والآلام .. » وطفقت تبحث عن غيرها ..
لم تعبأ بالعراقيل والصعوبات .. صعدت الجبال .. نزلت الأودية .. تهت
بين الكهوف والكتبان .. ولم تجد طريقا تضع عليها قدمك ..

حدثتك نفسك بالعودة ولم تتوقف .. واصلت السير بخطى ثابتة ..
وتمزق حذاؤك ، فربطته بخرقه واستأنفت السير بخطى حثيثة .. أنهكتك
التعب .. هدك الإعياء .. دب الوهن في قدميك .. تورمت أصابع رجلك ..
ولم تتوقف ..

قال لك أحد الخبراء في تخطيط الطرق :

– لن تجد طريقا تضع عليها قدمك حتى تجتاز ربوة الشوك .

قلت :

– سأبحث عنها ، فاما أن اجتازها ، أو أهلك دونها ..

ومضيت قدما في البحث عنها .. وقبل أن تبلغها تفكك حذاؤك ، وانخلع
الكثير من أجزائه ، فنزعت ما تبقى منه ، وألقيت به بعيدا ..

فقدت خطواتك الثابتة وأنت تمشي حافيا .. ذكرتك مشيتك بأيام طفولتك
أحسست المتعة التي كنت تجدها وأنت تمشي ، أو تهرول ، أو تركض ..
بلا نعل ..

وبدت لك الربوة من بعيد فهرولت .. وحين بلغتها لم تتردد في الصعود
إليها ، اعتمدت على يديك وأنت تصعد .. دسست على الشوك حافيا .. ألمك
وخز الشوك ، ولم تتوقف ..

بلغت أعلى نقطة في الربوة • أشرفت على طريق مستقيمة ، معبدة ، تمتد على بساط أخضر ، تحف بها الأشجار ، تنتشر على قارعتها الورد والأزهار لا يحول بينك وبينها غير منحدر تغطيه أشواك عالية ، حادة كاسنة الرماح • • لم ترهبك الأشواك ، فقد تعودت السير عليها ، ولكن الشيء الذي أربحك ، وجعلك تتسمر في مكانك كالعمود ، ذلك الورم الذي بدأ يستفحل في قدمك ، ويمنعك من التحكم فيها • • ترفعها فيختل توازنك ، وتحاول دفعها الى الامام ، فتسحبك الى الورا • • وتمتديدك والطريق المستقيمة تبتعد عنك ، ويشرب عنقك والاضضرار يتواري عن ناظريك ، ويختفي كل شيء فلا ترى غير زرقة السماء ، ولا تشعر الا بوخز الشوك ، وارتطام جسمك بالصخر • • وأنت تتدحرج الى أسفل الربوة • •

أفقت من اغمائك • • وأجلت النظر فيما حولك ، فاجتاحك رعب قاتل • • الرياح الهوجاء عصفت بكل خطوة خطوتها ، محت كل أثر لقدمك ، أقامت سدا منيعا يحول بينك وبين العودة الى طريقك • • والمجنون هجمت على السد ، تدفعه بيديك الداميتين ، تركله بقدمك المتورمة ، تنهشه بأسنانك النخرة • • وهو قائم في وجهك ، لا يتحرج • •

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وانطلقت من حنجرتك صرخة مدوية • • تردد صداها في بيوت بلدك • • في أروقة الجامعة العربية • • في كواليس منظمة الوحدة الافريقية • • في منابر الأمم المتحدة • • والسد يتعاطم • وقواك تنهار • •

ولم يعد بمقدورك الوقوف على قدميك ، فأسندت ظهرك الى جدار السد ، واغمضت عينيك • •

رأيت الناس يسировون في طريق طويلة فسرت خلفهم • • واتجه بعضهم نحو بطحاء شاسعة فتبعتهم • • وتوقفوا أمام باب مغلق فوقفت بالقرب من أحدهم • • وسألته :

— ما هذا الباب المغلق ؟

أجابك وهو يجيل فيك النظر متعجبا :

- باب مقبرة !

- مقبرة !

قلتها بأشمتزاز وأنت تشعر بخيبة المسعى .. وهيمت بالانصراف عنه فاستوقفك :

- مالك .. ألا تحب أن تدفن جوعك ؟ !

- أدفن جوعى !

- ألسنت جائعا مثلنا ؟ !

- أجل .. جائع .. ولكن ..

- لكن ماذا ؟

- كيف أدفن جوعى فى مقبرة ؟ !

- وأين تدفنه إذن ؟

- لا أقوى على دفنه أبدا !

- كيف .. ؟

- فى كل يوم أقطع رأسا من رؤوسه البشعة ، وأدفنها فى أعماق الأرض ، فتنبت مكانها أخرى !

- لا تقوى على دفنه بهذه الطريقة

- وبأية طريقة أدفنه ؟

- ينبغى أن تقطع رؤوسه جميعا بضربة واحدة

- لا أقدر يا أخى !

- إذن عليك بصاحب المقبرة

- وما بمقدوره أن يفعل ؟

- إنه هو وحده الذى يقدر على دفنه .

- وأين يدفنه ؟

- فى مقبرته !

- فى مقبرته ؟!

- أجل

- ولن أجوع بعد ذلك ؟!

- لن تجوع أبدا

وبقيت تنظر إليه متعجبا .. قال !

- مالك .. ! ألا تصدقنى .. ؟!

- وكيف تريدنى أن أصدقك ؟!

- لا عليك يا أخى .. ! بإمكانك أن تنتظر حتى يفتح الباب ، وإذا تمكنت
من الدخول الى المقبرة فستصدق ما قلته لك .. !

- وهل دخلها أحد قبلا ؟

-

لم يجبك .. رأى الباب يفتح فتركك واندفع نحوه .. دفع الناس بمنكبيه
اعتلى رقابهم ، وثب وثبة عالية لم تره بعدها .. واشتد من حولك الزحام ..
التصقت الأجساد بظهرك ، اعتصرتك ، قذفت بك يمينا ، أعادتك شمالا ..
والباب تضيق فتحتة .. وتعاطم موج الكتل البشرية ، جرك الى الخضم ..
وهناك حملتك موجة عاتية ، وقذفت بك نحو الباب فالتصقت به وهو يغلق ..
طرقته بيديك ولم يفتح ، سحقته الأجساد عظامك ولم يفتح .. ضاقت أنفاسك
وغبت عن وعيك فلم تعد تشعر بما يدور من حولك ..)

وفتحت عينيك فوجدت نفسك متكئا على صخرة فى قارعة الطريق .. نهضت
وبدأت السير من جديد .. أدركت من الخطوة الاولى أن الطريق التى تسير
فيها ليست غريبة عنك .. وتوغلت فى السير فاذا أنت تسير فى نفس الطريق
التي تعودت السير فيها ..

عبد العزيز فاخت

مع نبيل سليمان
حوار : إحميدة الصولي

الرواية العربية ما زالت واهية الصلة بالحرب

أردت بهذا الحوار مع الأديب السوري الاستاذ نبيل سليمان محاولة الخروج من دوامة الشيء المعتاد .. حيث تركز الحديث كله على الرصيد الفني والفكري لبناء الرواية . ذلك أن نبيل سليمان ليس كاتباً فقط . إنما هو مفكر أيضاً . فبالإضافة إلى التجربة الطويلة في كتابة الرواية له تجربة عميقة في مجال النقد أيضاً . ولم أفلت هذه المناسبة كي أستغل جانبى العطاء في محاورى في محاولة إبراز الجوانب الخاصة في ممارسته الشخصية للكتابة وكذلك الإشارة لبعض التجارب الأخرى ..

س) ماذا يعنى لديك العمل القصصى ؟ هل هو إعادة تركيب الواقع أو هو إعادة خلق له ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ج) بين كلمتى تركيب وخلق فى اللغة العربية بعض التمايزات التى لا نجدها بما يعادل ما فى الفرنسية مثلاً أو الانكليزية . كما هو الأمر بالنسبة لظلال كلمة إبداع فى العربية . لكلمة تركيب ظل ما من الاصطناع فيما لكلمة خلق ظل كبير من التلقائية .. من الصناعة غير المنظورة . ولأن الأمر كذلك فانى أرى العمل القصصى والروائى والمسرحى أيضاً إعادة خلق للواقع أى إن الأمر ليس تجميع مواد خام ومراكمة وقائع وحيثيات ووثائق بل هو أعمق من ذلك . هو إعادة إنتاج لهذه العناصر أو تلك مما يتوفر بين يدي المبدع على نحو جديد مثلما هو أيضاً ابتداء عناصر جديدة حسبما تستطيع الخيلة أن تقدمه .. وحسبما تكون خبرة وتجربة المبدع غنية وناضجة الأمر الذى يجعل مخيلته خالقة حقاً .

إن هذا الأمر يجد ترجمته الكبرى فى نوعين من الأعمال الإبداعية . نوع يحمل صيغة (وثائقية) ونوع يحمل صيغة تخيلية غير معينة .

(س) الحدث الروائي والحدث المادى المعاش .. هل ثمة علاقة بينهما ؟

(ج) انطلاقاً من الاشارات الأولية فيما تقدم أشدد على الصلة بين الحدث الروائي والحدث المادى المعيش من قبل الكاتب أو سواء . الاشارات السابقة تغدو في حالة الرواية تجديداً . أمر آخر .. فالرواية إذ تعيد خلق مجتمع شخصيات وحيوات فانها شديدة الاحالة على الواقع الموضوعى بشقيه الاجتماعى والطبيعى وربما لأنها كذلك توافق ظهورها مع تحقيق الوعى البشرى خطوات اكبر فأكبر للعالم الموضوعى . ثمة روايات يطلق عليها اسم الروايات التاريخية وأخرى تنعت بالوثائقية . مثل هذا اللون الروائى يستدعى نسبة أعلى مادة خام من وقائع .. شخصيات .. أحداث الخ .. على الضفة المقابلة ثمة لـون روائى آخر يذهب أبعد فى التخيل فيبدو كأنه واهى الصلة أو مقطوع الصلة بالمهاد الاجتماعى . فى الحالتين وفيما بينهما من تدرجات تبدو أقرب أو أبعد على الأساس الواقعى للرواية ، يظل هذا الأساس قائماً فى حياة الكاتب .. فى حياة سواه .. ممن يعايش أو يتابع .. فى الأرشيف .. وهذا هو معنى العلاقة بين المجتمع الروائى وما يحيل اليه .. هذا هو معنى العلاقة بين الحدثين الروائى والمادى المعاش .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قد يتدع الكاتب أحداثاً لم تقع حقاً وقد يعيد تكوين حدث وقع .. إنه يفعل هذا أو ذاك بمقتضى عمله .. حسبه أن يوفر الانسجام فى عالمه الجديد .. حسبه أن يقنع بمخلوقاته . إن كثيرين عبر التاريخ يتكثون على هذا الذى نقول : حسب الروائى أن يفعله .. كى يعطلوا العلاقة الجدلية بين التخيل والواقع الموضوعى .. بين الابداع والمجتمع .. بين المبدع والتاريخ .

فى روايتى «المسلة» ثمة أحداث محددة بوئائق عى بعض ما كان فى حرب أكتوبر 1973 على الحدود السورية .. خلال هذه الحرب وفيما أعقبها حتى وقع فصل القوات فى حزيران 1974 . هذه الأحداث ربما أضفت إليها بعض الحركات أو الجزئيات وربما غيبت من بعضها حركات أو جزئيات .. لكن الأساس الوثائقي ظل مصوناً بيد أن هذا الاساس فى جملة بناء الرواية بات ذا دلالات جديدة أو اضافية خاصة أنه فى السياق الروائى قدمت مشاهد وأحداثاً ليست وثائقية بالمعنى الحرفى ، ولكنها معاشة شخصياً أو مجتمعياً وهذا ربما يضىء فكرة الاساس الواقعى للحدث والتخيل فى بعض جوانب العمل الروائى .

بالمقابل ليس لروايتي « السجن » مثل هذا التعيين الزماني أو المكاني الحاد فهل هذا يعني أنه ليس لبشر وأحداث رواية السجن أساسهم الموضوعي ؟ بالطبع لا . . ان عدم التعيين في العمل الروائي أو التعيين الجزئي هو واحد من التحديات الفنية الكبيرة وإذا لم تستطع رواية من هذا القبيل أن تخاطب القارئ بحرارة واقتناع فانها تكون قد غدت لعبة تخيلية طريفة أو غير طريفة لكنها لا تكون رواية .

س) الرواية طبعاً بناء متماسك . . فهل يصح اعتبار تفاصيل الحدث حجر البناء فيها ؟

ج) بالمعنى الحرفي للكلمة . . أجل . إن تفاصيل الحدث حجر من أحجار الأساس في البناء الروائي توفر له الملموسية وتساعد مخيلة الكاتب على تطوير البناء وتعمق دلالاته وإخصابها قد يبالغ بعض الكتاب في هذا الأمر فتغدو أعمالهم أقرب إلى الريبورتاج . ليس ثمة قاعدة محدودة . كل بناء روائي جدير هو حالة بعد ذاتها . . تجربة قائمة بمفردها . . ثمة انتقاد ينظرون شذراً إلى الأعمال الروائية التي تعنى بالتفاصيل خاصة حين تكون هذه التفاصيل يومية شعبية جداً أو شخصية جداً . . لكنني لا أرى الأمر يحد ذاته ومن حيث المبدأ مقبولاً كلياً أو مرفوضاً كلياً، الأمر مرهون بحاجة البناء الراي إلى هذه التفاصيل وبقدرة الكاتب على تلبية هذه الحاجة بالصورة الأفضل .

س) هل للحالات الشخصية دور في تحديد وبلورة الشخصيات في الرواية؟

ج) هذا السؤال يستدعي التفكير فيما بين السيرة الذاتية والرواية . الشخصي والموضوعي في الرواية . الرواية كما هو معروف أكثر الفنون الكتابية موضوعية ولكنها تفسح رغم هذه الطبيعة للذاتي كثيراً أو قليلاً حسبما تكون خصوبة وأهمية البعد الذاتي . ليس لكل ما يعيشه الكاتب بنفسه موقع في العمل الروائي . . قد يكون في شخصية ما قدر أو آخر من الكاتب نفسه في شطر ما من حياته . من المهم جداً أن يكون الكاتب كبير الیقظة في هذه المسألة فلا يستمر في الكتابة عن نفسه إذا لم يكن لذلك حاجة موضوعية في العمل . تحضرني هنا القولة الشعرية الشهيرة : « أقسم نفسي في نفوس كثيرة » . عندما كتبت روايتي الأولى « ينداح الطوفان » ضغطت على إلى حد ما بعض عناصر النشأة الريفية في مكان محدد وزمان محدد لكنني لم ألبث أن

وجدت نفسي في منجاة من هذا الضغط بفعل تطور البناء الروائي وبفعل تطور الشخصيات والاحداث التي لا موقع مباشر للمعنصر الذاتي في خضمها . وربما ساعدني في ذلك أيضا أنه كان قد سبق لي أن كتبت قبل هذه الرواية أكثر من تجربة لم أنشرها لا من قبل ولا من بعد .

وعلى الرغم من مرور 15 عاما فيما بين « ينداح الطوفان » وروايتي الأخيرة « هزائم مبكرة » فقد عانيت من ضغط العنصر الذاتي على مشروع البناء الروائي أكثر لقد عدت في هزائم مبكرة الى سنوات الوحدة السورية المصرية . والانفصال الذي أعقبها . على المستوى الشخصي . هذه المرحلة كانت مرحلة التكون بشتى أبعاده الفكرية والسياسية والجنسية والعاطفية والدينية . وقد كان أحد الأسئلة المركزية الشاغلة لمشروع الرواية هو كيف جرى تكون فئة من الشباب في تلك المرحلة وصولا الى صورتهم على اعتبار المرحلة التالية للانفصال ومن المرحلة التي ما تزال البلاد تعيشها منذ ربع قرن .

لقد أعدت كتابة هذه الرواية مرتين تحسبا لضغط العنصر الذاتي على حساب الحاجة الموضوعية للعمل الروائي .

س) لكي يتحول الحدث السياسي أو الاجتماعي الى حدث فني لابد من توفر شروط . . لو تشير الى بعضها هنا . .

ج) ربما كان في رأس هذه الشروط التي تبرر وجود حدث سياسي أو اجتماعي في الرواية هو أن يكون هذا الحدث مفصليا ذا دلالة تاريخية منعظا بالأخرى . . فليس أى حدث سياسي أو اجتماعي صالحا بالضرورة للعمل الروائي مهما كان عزيزا على نفس الكاتب أو مؤثرا . التمييز هنا بين الحدث السياسي والاجتماعي مؤقت بفعل ضرورة الحديث فكسل حدث سياسي من حيث الأصل هو حدث اجتماعي ولكل حدث اجتماعي بعده السياسي هذا جلي جدا في الاحداث الكبرى وهي الاكثر ملاءمة لما ذكرت في البداية . عندما يتصل العمل بأحداث جزئية تفصيلية لابد من الغرلة والاختيار الدقيق . . بعض هذه الاحداث الصغيرة قد يعيش الكاتب على بناء مشهد ربما يساعده أيضا في توليد حالة أو علاقة روائية لكن التحدى هنا كبير . عندما حاولت أن أكتب عملا روائيا ذا صلة أساسية بحرب أكتوبر 1973 واجهت هذا التحدى من خلال

الطبيعة السياسية الساخنة للمادة الروائية الخام فمسألة الحرب ما تزال الرواية العربية واهية الصلة بها على الرغم من وفرة الحروب الاستقلالية والأهلية .. وعلى الرغم من الصراع العربي الاسرائيلي وحرب الخليج .. كان هذا التحدى النابع من طبيعة العمل الروائي المزمع يتمثل في خطر الدعاوية المجانية في عزل البنية الاجتماعية او تهيمشها في ضغط الشعارية .. وهذه كلها من الحواف السلبية للحدث السياسي في العمل الفني . لكن عندما تتوفر الرؤية التاريخية وقبلها وبعدها المقدرة على بناء عمل فني فان هذه الحواف السلبية تنزاح ليحل محلها يديها الايجابي حيث تغدو الرواية تاريخا جديدا تاريخا غير رسمي . وبالنسبة لتجربتي الشخصية حاولت أن يأتي ذلك في النظر المعمق في المؤسسة العسكرية .. في التعبيرات السياسية .. عن الحالة الاجتماعية العامة .. وفي سوى ذلك مما استطعت تقديمه برواية المسلة أو رواية جرماتي التي جعلت لها عنوانا فرعيا هو « ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب » ولذلك كان طبيعيا أن تواجه كل من هاتين الروائيتين ما واجهته .

رغم كل ما تقدم فليس بوسعي - ولا أظنه بوسع سوى - تقديم لائحة بشروط تحويل الحدث السياسي أو الاجتماعي الى حدث فني .. ثمة تاريخ بين أيدينا لهذا الفن نستضيء به وهو في حدود عليي يؤكد ما ذكرته . وثمة قبل ذلك وبعده قدرة المبدع على الإبداع . ها ينني في مرحلة مبكرة كتب ملاحقا التبدلات السريعة في الحكومة . تصور كاتبنا لبنانيا ينشغل في جملة ما ينشغل به وهو ينجز مشروعا فنيا بالتبدلات الحادة السريعة في حكومات الظل اللبنانية قد لا يسفر مثل هذا العمل عن شيء، وقد يقدم أجمل وأقوى مما قدم ها ينني . مرة أخرى لسنا بصدد لائحة شروط .

س) وماذا عن قراءة الصمت .. أي الولوج الى خبايا النفس في تقلباتها وعدوئها .. وخاصة فضح ما يحول فيها أحيانا ؟ هل هذا في متناول كل قاص ؟

ج) قراءة الصمت بهذا المعنى ليس في متناول كل قاص فبعضهم قد يشغله أكثر رسم المشهد .. ملاحقة الحدث .. وبعضهم يؤثر كلياً أو جزئياً التأمل في دخيلة هذه الشخصية أو تلك. في بعض الروايات تكون دخيلة بشرها مغيبة إما تحت وطأة أحداث خارجية شاغلة كلياً أو بفعل قصور الكاتب عن استبطان شخصياته ومحدودية خبرته العلمنفسية .

بالطبع بعض الشخصيات الروائية تستدعي - لابد - قراءة الصمت خاصة ذلك النوع المنضوى أو المنعزل أو المنسحب ، وأيضاً ذلك النوع الغنى والمعقد بالمعنى الإيجابي للكلمة أو بالمعنى السلبي . ربما تكون قراءة الصمت في مثل هذه الحالات أيسر على الكاتب . . لكن يبقى من المهم جداً أن لا تكون الشخصية الروائية مشجبا يعلق عليه الحدث أو سواء من مشاغل الكاتب ذلك أنه إذا لم يتوفر للشخصية الروائية أن تحيا أيضاً حياتها الداخلية في العمل فإن هذا العمل يظل ناقصاً باهتاً يفتقر الى الاقتناع والاشعاع .

س) هناك في الوطن العربي حالة مرضية حيث يقع التركيز دائماً على مجموعة من الأسماء محدودة . . وإهمال ما عداهم . هل من طريقة توظف من خلالها كل الطاقات المبدعة ؟

ج) نجومية المثقف في الوطن العربي على كل حال أسوأ حظاً ألف مرة من نجومية أية راقصة أو مطرب من الدرجة العاشرة . نجومية المثقف في مثل حالتنا تصنعها عوامل سلبية بصورة عامة . . عوامل غير وحيية ولا جذيرة من العلاقات الشخصية . . إلى المحررين الصحفيين . . إلى مختلف أحابيل الوسائل الإعلامية المسموعة والمرئية خاصة . . إلى علاقات النشر والتوزيع . . إلى علاقة المثقف بالسلطة . . ومصلحة كل من الطرفين في تلميع وتصدير الآخر . إنها عناصر عديدة ومعقدة كما ترى . وليس من السهل في مقام كهذا عرضها فضلاً عن التبصر بها . إنما يهمني أن أشدد على أن الكاتب الذي يسير عكس التيار السائد في بلاد العرب ليس له إلا أن يظل في الظل الى هذا الحد أو ذاك .

بالطبع بعض الكتاب الذين صاروا نجوماً بالمعنى الإيجابي للكلمة يستحقون هذه المكانة رغم قلتهم . خذ عبد الرحمان المنيف . لكن أية نجومية تأتي عن غير الطريق الذي يوفره إنتاج الكاتب وممارسته لمواطنيته . أية نجومية خلاف ذلك ليست أكثر من مكسب رخيص أو شرك خبيث على القارئ، والكاتب معا أن يكونا شديداً الفطنة نحوه . وفي هذا السياق من المهم أن تتظافر جهود الكتاب والمشتغلين في الانتاج الثقافي البعيدين عن الأضواء السائدة من أجل توفير ظروف أفضل لعملهم ولعلاقتهم بقرائهم بعيداً عن الوسخ السائد في النجومية العربية الراهنة .

صدر للكاتب

روايات :

- * ينداح الطوفان ، الطبعة الثانية ، دار الحوار اللاذقية 1983
- * السجن ، الطبعة الثالثة ، دار الفارابي - بيروت 1980
- * تلج الصيف ، الطبعة الثالثة ، دار الحوار - اللاذقية 1985
- * جرماي ، دار الثقافة الجديدة - القاهرة 1977
- * المسلة ، دار الحقائق - بيروت 1980

دراسات :

- * النسوية في الكتاب المدرسي السوري ، وزارة الثقافة - دمشق 1978
- * النقد الأدبي في سورية ، الجزء الاول ، دار الفارابي - بيروت 1979
- * مساهمة في نقد النقد الأدبي ، دار الطليعة - بيروت 1983
- * الرواية السورية ، وزارة الثقافة - دمشق 1982
- * أسئلة الواقعية والالتزام - دار الحوار 1985
- * وعى الذات والعالم ، دراسات في الرواية العربية - دار الحوار 1985

أعمال مشتركة :

- * الأدب والايديولوجيا في سورية ، بالاشتراك مع بو علي ياسين ، الطبعة الثانية ، دار الحوار - اللاذقية 1985
- * معارك ثقافية في سورية ، بالاشتراك مع محمد كامل الخطيب و بو علي ياسين ، دار ابن رشد - بيروت 1980
- * الماركسية والتراث العربي الاسلامي ، بالاشتراك مع بو علي ياسين وآخرين ، الطبعة الثانية ، دار الحداثة - بيروت 1982

السيد عبد العزيز نجم

السفر

الأشياء من حولها ، لها وجود ملموس ، مسموع ، مطبوع ، مقروء ، منطوق ..
وكل منها ! قبل آذان الفجر .. تستيقظ ، تنهض ، تتوضأ ، تعيد ترتيب
الأشياء داخل غرفتها الضيقة ذات الباب الخشبي الرقيق . المتاكل من أثر
الرطوبة ، تفتح مصراعى النافذة ، تسعل ، تنمخط ترتدى جلبابا آخر ، تعيد
ملء القلة .. تنشغل كثيرا بتلميع غطاها النحاسى الأصفر .

تجلس الى الأرض .. مسبحة ، حامدة ، شاكرة ، موحدة .. انتظارا لسماع
صوت المؤذن ، لتصلى ..

فوق الاريكة البلدية ، المتراككة ، القديمة . جلست ، أسفل النافذة الصغيرة
ذات القضبان الحديدية الصدئة ، الصليبية الشكل ، الفليضة . النافذة بمستوى
أفريز الشارع الآخرون يصعدون درجات السلم كى يدخلوا مساكنهم ، أما هى
فلها سلم آخر ، تهبط عليه خمس درجات كى تنزل الى حجرتها الملقاة فى جوف
المنزل العتيق .

على مهل بدأت طقوس قهوة الصباح ، شربت وقرات الفنجان ، لم تبتسم
كماداتها كفته ثانية ، سوف تعيد قراءته ، وضعف ذراعها الايمن تحت رأسها ،
ذهبت فى دعة وعدوه الى نعاس ووسن ، داعبها الكرى ، الاصوات بالخارج
تأتيها متلاحقة سريعة ، تعلو وتكثر .. يصعب تمييزها ، غلبه إيقاع وقع
أقدام زوجها المتوفى منذ سنين بعيدة !

انه هو ، فهى تعرفه . خياشيمها تحفظ رائحته . قدمت الفنجان .. قالت :

... (اقرأ)

رمى نظرة حائرة كسابق عهده ، حلق النظر ، وإطال .. أخيرا قال :

- (ما أنا بقارىء)

نهرته آمرة : لقد علمتك رموز النبوءة

رفع جلبابه الأبيض حتى ركبتيه ، تبدوان بلون العيش المحترق ، ارتاح الى الارض متربعا ، غطى ركبتيه ثانية .. ثم ضحك قائلا ..

- (يموت المعلم ولا يتعلم)

بصوت عال تابعت .. (ها هو ذا الطريق ، ها هي ذى النقطة ، هناك ابنتنا الوحيدة ، هنا رجل وامرأة .. أنا وأنت !!)

الرجل قهقه بصوت ساخر .. (ولو !!)

بأنفعال هزته من كتفه .. (تدور الأيام وتلف وأنت .. أنت ، لا تتغير ولا تتقدم خطوة) احتقنت أذناه ، انتفخت أوردة جبهته . انه لا يبغي إطلاق الضحكة ، ضحكاته تثيرها وهو حريص على ارضائها !

.. (هات ..) وخطفت الفنجان .

صرخ فيها .. (إحترس .. إحترس)

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

انتفضت ، نهضت ، استعاذت بالله ، دعت عيناها ، نظرت أمامها ، الفنجان حطاما مثنورا فى بعض منه .. الطريق ، النقطة ، الرجل والمرأة ، والابنة هناك !!

« 2 »

طرق على الباب ، منتظم ، هين ، متباعد النبرة .. طروب ، بصوتها المشروخ الباعث طمانت الطارق ..

- (حالا سوف افتح .. إنتظر)

إنها تعرف أنه « عباس » موزع البريد ، الا أنه لم يكف .. دخل عليها بمرحه وهياجه وتهريجه ، لسانه يتكلم وعيناه وذراعاها ورأسه ! أخبرها بمقدم الطبيب كما وعدها بالأمس .

بعد زواج ابنتها وهجرتها ، ومنذ أول خطاب منها ، يدخل « عباس » الحجرة يفض المظروف ، يقرأ الخطاب ويشرب الشاي ، يفعل حسب حرارة اشواق كل جملة ، يقرأ لتناقشه في كل كلمة فيه ، بات أكثر من كونه موزعا للبريد يشكو لها همومه وتشكو له ، يقص عليها فعلة رئيسه في العمل وتعمته ، وكيف أنه يعتمد تسليمه برقيات التعازي والشكاوى أما التهناني فلآخرين بينه وبينهم مودة !

وتهديء من روعه ..

يخرج من حجرتها راضيا مرضيا .

صاح عباس .. (اتفضل يا دكتور)

دخل الطبيب الشاب ، أعاد احكام نظارته الطبية وهو يرمى نظرة هلامية الى الأشياء من حوله . انهى الكشف سريعا ، أخرج دفتره ، خط رسوما مبهمه وخط طلاسم .. ثم قال وهو مازال واقفا رافضا الجلوس منذ وصوله .. (قبل شراء الدواء ، أترك هذه الغرفة الرطبة المظلمة) .

نظرت إليه قاطبة ما بين حاجبيها كعادتها ، همست بهدوء ..

(يا طبيب مداوى .. إن كنت ناوى تقول غناوى .. ده نصيبى وهو بيتى

وان كنت ناوى تقول بدواى .. هات الى عندك وخذ الى عندى !)
ضحك عباس ، الطبيب لم يفهم شيئا . خرج وهو يعيد ثانية احكام نظارته الطبية !!

.. ما أن صفق الباب الخشبي ثانية ، حتى هلل عباس قائلا :

- (حان وقت الجد ، لقد انتهيت أخيرا من كل المطلوب) .

- (لن أسافر !) قالتها بتحد .. شاردة ، زائغة العينين .

- (انها أرسلت اليك بكل المطلوب ، حتى ثمن التذكرة ، غدا فى السادسة صباحا سوف أحضر لتوصيلك إلى المطار ..) .

لفهما الصمت فترة .. تابع عباس :

- (لا تنسى أنها ابنتك الوحيدة ، وأنت وحيدة هنا . لا زوج ولا حتى أقارب) أستدارت الى القلة ، تجرعت منها ببطء ، صوت انزلاق الماء منها يعلو ، مسحت شفتيها بظهر كفها . أطالت النظر الى عباس ، أخيرا فاجاته قائلة :

(هناك ... توجد قلة ؟ !)

انفجر عباس ضاحكا ، ظل يضحك حتى لامست رأسه ركبتيه !!

« 3 »

لا تدري من أين نفرت هذه الرغبة ؟ ولا من أين انتها تلك القوة ؟ ..
رغبتها في إعادة تنظيف وترتيب أشيائها ، وقدرتها على تنفيذ ما رغبت .

فتحت صندوق زوجها الخشبي القديم الأسود ، رفعت الشيشة .. ملأها بالماء ، اشعلت الفحم ، وضعتها أمام الأريكة .. قالت يوما ..

http://Archivebeta.Sakhi1.com (جهزت لك الشيشة ياسى محروس)

عادت واشعلت البخور ، عبقت المكان بالرائحة .. فبككت طفلتها الرضيع ، همست ..

.. (لماذا البكاء كلما شممت رائحة البخور ، إنها تطرد الجن من الحجرة ..
الظاهر أن ابنتك ياسى محروس .. عكس الناس !) .

الرجل مشغول فى النارجيلة ، يتأمل الجيران .. تمتم قائلا ..

.. (متى أشوفها عروسة فى الكوشة ، وأنت فاضية ومشغولة) !!

جلست فوق الأريكة ، أراحت رأسها فوق ذراع زوجها الممدودة خلف ظهرها
(تعرف ياسى محروس ..)

زام الرجل ، اخرج صوتا تعرفه ، إنه نشوان .. !

قالت (أموت قبلك !!)

(لا ..) قالها ممدودة ، واثقة ، خرجت من جوف صدره ، فكانت ناعمة ،
هادئة .. (أنا الاول) .

جاءها صوت صراخ صغيرتهما ذات الثلاثة أعوام ، لقد تعلقت بالنافذة حتى
أخرجت رأسها الصغير من بين القضبان ، كادت تخرج نصف جسدها ،
انحشرت ، لم تقدر على إخراج كل جسدها .. فبكت !

منذ عشرة أعوام لم تحرص على تركيب الناموسية ، اليوم اسقطتها من فوق
أعمدة السرير الأربعة ، لم تخرجها منذ وفاة الرجل بعد أن كانت تحرص على
اسدالها صيفا وشتاء خشية تلصص عيني الصبية ، وقد سألت أمها ذات
صباح عن سر ذلك الصوت المنبعث من سرير أبيها ..

.. (البنات كبرت ، وعينيها فتحت ، والفكر شاغل دماغها)

ضحك محروس ، بصوت مقضوم خاطبها ..

(دارت الأيام ، يارب ما تخيب ظني)

.. (بنتك الأولى على فصلها)

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

(ربك كبير ، يديم عليها عقلها) .

.. السيدة العجوز لا تجيد القراءة ، عندما أخرجت الأوراق المبرومة ، نثرتها
أمامها ، تصفحتها واحدة بعد أخرى .. (عقد زواجي ، عقد إيجار الحجرة ،
شهادة وفاة « سى محروس » .. يا قلبي ، شهادات ابنتي الدراسية . هذه هي
الشهادة الكبيرة .. أخذتها من الجامعة يا روي) خطابات مرتبة ، أرسلتها
الابنة بعد أن هاجرت الى البلاد البعيدة .. (هذا أول خطاب وهذا آخرها) ..
ثانية برمتها ، وضعتها هذه المرة بجوارها على السرير .

.. لم يبق إلا الغطاء القماشى المصنوع من مقطوعات الاقمشة الممزقة ، رفعتة
من فوق ماكينة الخياطة ، نفضت عنه الأتربة ، أعادته ثانية نظرت إلى اللاشيء
ثم قالت بسكينة ورضا (شكرا .. شكرا) !!

السيد عبد العزيز نجم

الحـد الفـاصل

قالت «هند» مشرقة الوجه بفرحة تغمر كيائها انغص :

— أصبح يا أماء .. أن أبى سيصل الليلة ؟

أومات إليها أمها برأسها علامة الإيجاب دون أن تلتفت إليها ، فهي منهمكة في وضع زربية وشدها إلى الحائط • لكن الطفلة الصغيرة اقتربت منها وأمسكت بطرف فستانها للفت انتباهها إليها ، وانبرت تسأل متطلعة بوجهها البريء نحو أمها المشغولة عنها :

— جدتى تقول : اننى سأنام عندها الليلة كى لا ازعج أبى المتعب من السفر ، وأنت يا أمى هل ستنامين معه فى غرفتك أم ستنضمين إلينا للمبيت عند جدتى ؟ ..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ابتسمت الام بسعادة ظاهرة ولم تجب • فالتحت الطفلة قائلة :

— اجيبى يا أماء .. ان السرير كبير يتسع لثلاثتنا • وأعدك اننى لن أزعجك بأسئلتى أبدا وسأكون الطفلة المهذبة كما تريدني يا أمى •

نزلت الام من على الكرسي بعد أن اتمت وضع الزربية وتثبيتها في واجهة الغرفة ثم وقفت تتأملها لحظة قبل أن تستدير نحو ابنتها وتقول :

— عزيزتى «هند» كنت تطلبين دائما أن أشتري لك سريرا مثل سرير ابنة عمك «راوية» غدا سأفعل ذلك فاطلب من والدك أن يحضر لك سريرا جميلا بيد أنك هذه الليلة ستبيتين صحبة جدتك •

قالت «هند» مبهورة الانفاس تتألف ذراعى والدتها التى احتضنتها بحنان :

— حقا يا أمي ، أنت رائعة جدا • وأنا أحبك كثيرا ان سريري سيكون أجمل من سرير «راوية» لانه سيكون جديدا وبني اللون •
قالت الام :

— أجل يا صغيرتي كما تريدين سوف يكون بني اللون •

ثم قامت لركن من اركان الغرفة تقع فيه متضدة خشبية ففتحت الحقيبة التي فوقها وأخرجت منها صورة مكبرة لزوجها داخل اطار جلدي مزركش فعلقتها وسط الزرنية التي أثبتتها منذ حين في وضعية مباشرة تواجه الداخل الى الغرفة • تفهقرت ناحية الباب تتأملها في عتاب يشوبه الشوق لصاحبها الغائب فقفزت «هند» الى جانبها وقالت :

— هل أبي جميل مثل صورته يا أمي ؟

فاجابت دون أن ترفع عينها عن الصورة :

— نعم يا هند • بل هو أجمل بكثير ، سوف ترينه وتعرفين أن لك أجمل أب في الدنيا •

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

— ولكن ليس له شارب مثل جدي ، هل مازال طفلا ؟ سمعت جدي يقول : ان الرجل الذي لا يحمل شاربا ما زال طفلا • فهل هذا صحيح يا أماء ؟ •

ضحكت الام مغتبطة لكلام ابنتها واحتضنتها في حب واعتزاز ثم قالت :

— الشيوخ في عمر جدك — يا هند — ما زالوا يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم القديمة كترية الشوارب مثلا • اما الرجال في سن والدك فهم لا يعمرون اهتماما لمثل هذه الاشياء وينظرون الى الحياة بمنظار مختلف والحمد لله ان أباك لا يحمل شاربا طويلا كي لا تنعته بالقط كما تفعلين مع جدك •

ضحكت الائنات والقت الصغيرة برأسها فوق الكتف الدافئة ففرست الأم أصابعها بين خصلات الشعر الحريري الناعم ، وصوبت نظرها الى البعيد تسرح بفكرها في حديث داخلي وحوار كله شجن وذكرى في دروب النفس المثقلة بمتعاب الحياة ومعاناتها •

... ذات مساء ربيعي و«عند» لم تكمل بعد عامها الاول ، كانت السماء صافية والشمس مشرقة ترسل اشعتها الدافئة في اركان الكون الراقص جذلا بقدوم الربيع ، انامت «سعاد» ابنتها وخرجت من غرفتها الى صحن الدار تتجاذب اطراف الحديث مع سلفتها التي تسكن معها نفس المنزل وتطلبان بعض الراحة بعد يوم متعب قضتاه في الغابة تساعدان زوجيهما في تقليع الحطب وتجميعه لبيع في السوق . والمرأة الريفية لا تبخل على زوجها بالمساعدة في عمله كلما وجدت لذلك سبيلا فالى جانب أعمالها المنزلية الكثيرة وتربية الاطفال عليها أن تساهم بجهدا للعمل في «الغابة» مما يدخل السرور والبهجة على قلبها الذي لا يعرف التبرم والشكوى اذ هي تقوم بواجباتها الاساسية لاكتمال الحياة وازدهار الاسرة داخل الاطار الزوجي السعيد . في ذلك المساء عاد الزوج باكرا على غير عادته ، فقد كان مثل غيره من رجال القرية المزارعين بعد أن يفرغ من مهمته في السوق من بيع وشراء يلتمس بعض اللهو في مقهى المدينة يلعب الورق ويشرب الشاي ويجتمع بالاصدقاء حتى وقت متأخر .

نادى زوجته وأصرع مهرولا نحو غرفته وصفق الباب وراءه فصاحت سعاد :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

— احذر ان تستيقظ الطفلة ، لقد نامت منذ حين فقط .

ثم جرت اليه مستجيبة لندائه ، همس اليها بمرح :

— اغلقى الباب وتعالى هنا الى جانبي .

قالت متسائلة وقد استقرت بجانبه فوق السرير .

— خيرا ان شاء الله ، ما الذى جاء بك سريعا ؟ هل بعث الحطب ؟

لف خصرها بذراعه وابتسم لها :

— سعاد ... اتحبيننى يا سعاد ؟

ذهلت لسؤاله المفاجئ ومع ذلك قالت :

— هل قطعت كل هذه المسافة الطويلة من المدينة حتى هنا لتسألنى هذا

السؤال .

– أرجوك يا سعاد أنا لا أمزح • وأريد أن أسمع منذ الآن هل تحبينني ؟
 – دون شك • وأنت أعرف الناس بدخيلة قلبي • ولكن ما الامر ، ما هذه
 اللفة التي تعتريك انى ما عهدتك بهذا الغموض أبدا فصارحتى أرجوك ما
 الذى تخفيه عني ؟

– لست أخفى عنك شيئا يا زوجتى العزيزة • كل ما فى الامر اننى وجدت
 عملا خارج البلاد وسأسافر غدا صباحا •

انتفضت مذعورة وقد امتز كيائها فى رعشة لا تدري لها سببا :

– ماذا ؟ تسافر ؟ الى أين ؟ • وعملك • ما به عملك هنا ؟ اننا
 والحمد لله فى أرغد عيش مثل غيرنا من الناس وأقل من بعضهم وأفضل
 من كثيرين •

– آه يا سعاد ليتك تفهمننى ، ليتك تدركين ما ترنو اليه نفسى ،
 وتطمحين الى ما أطمح اليه • • • استمعي الى جيدا يا حبيبتي : ان الحياة قد
 اتسعت كثيرا عن ذى قبل وازدادت مطالبها الحاجا والله سبحانه وتعالى يقول
 « فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله » لم أستطع تحمل هذه الحياة
 البسيطة الفارغة التى أحيها فى قريتي مجرد «خماس» يفلح الارض ويشقى
 مع النخلة من اول طلوعها حتى آخر حبة من ثمارها ولا يجنى فى الاخير سوى
 حفنة ضئيلة من المال لا تغنى شيئا ولا تسد بابا من ابواب الحياة المفتوحة
 بشراقة ونهم • لقد سئمت هذا الركود وهذا الفقر الذى يلفنا كالاخطبوط
 ونحن حياله جامدون لا نملك الا الخنوع والاستسلام فى دعة وسكينة مريرة •

– ولكنه قدرنا هو الذى أوجدنا فى هذا المكان لنحيا هذه الحياة فلترض
 بما قسمه لنا ربنا ونحمد على عطاياء الجزيلة فمن كان فى نعمة ولم يشكر
 خرج منها ولم يشعر •

– نعم ! بالله يا سعاد • • • صدقيني لقد حاولت توطين نفسى فلم استطع
 ووجدت نداء الهجرة أقوى وأعمق والآن قد انتهى الامر • • • انظرى ، هذا
 جواز السفر أخذته اليوم • • • لقد قررت الرحيل الى فرنسا ، العمل متوفر
 هناك بكثرة وسوف ابني لك بيتا مستقلا يا سعاد وتكون لنا سيارة خاصة

وستلبسين أفخر الثياب وأرقاها وتلقين بهذه الاسمال المخجلة وتهجرين هذه

الحياة القاسية وتترعرع ابنتنا «هند» فى رفاة وسعادة .

ثم تقدم نحوها فأمسك يديها بين كفيه يراقب عينها المتطلعتين اليه بنظراته المحبة الالهى . فما كان منها الا ان قالت بصوت متحسر سكنه الياس :

— ومن أين لك ثمن تذكرة السفر .

— اطمئني لقد قبضت اليوم من «المالك» كل خمسى وسأترك لك بعضا منه على ان ابعث اليك بالمصروف كل شهر باذن الله .

— وهل أخبرت والديك بعزمك هذا ؟

— نعم أخبرت والدى قبل ذهابى الى سوق المدينة وقد أوصيته بكما خيرا وهو لم يمانع فى سفرى فقط أخى رفض الفكرة من أساسها وعارضنى بشدة لكننى لم أعره اهتماما لانى عزمتم على هذا الامر وشرعت فى تنفيذه منذ مدة .

— اذن اللوم بعد القضاء بدعة ، أمرى لله فهو وحده الذى يعلم كم ساعانى لفراقك .
http://Archivebeta.Sakhril.com

— وأنا أيضا يا زوجتى الغالية هل تظنين الفراق سهلا بالنسبة لى . ولكن ماذا نفعل ، علينا أن نصبر ، فسأملكث عاما ثم أعود .

نادت «هند» بصوت مرتفع :

— أمى ، أمى ، انى أناديك منذ حين وانت صامتة ، أرجوك تكلمى وردى على سؤالى . هل سيأتينى أبى بلعب كثيرة ؟ ...

تنهدت سعاد تنهيدة طويلة حرى وأكملت حديثها لنفسها بينما أصابعها ما تزال تعبت ببخصلات الشعر الناعم :

«آه ... اذا صدق فى وعده وحضر الليلة فسيكون قد مر على رحيله أربع سنوات كاملة بل أزيد من ذلك بثلاثة أيام وهكذا يمضى الزمن بسرعة تأخذ أيامه من أعمارنا ما تشاء . فى العام الاول توات رسائله يبعث الينا بأخباره

تباعا ولا يبخل علينا بالمال يرسله بين الحين والآخر ثم بعد ذلك تقلصت مراسلاته تدريجيا ، ثم انقطعت كليا حتى بعث بخبر قدومه بعد توصلات والده وتضرعاته المستمرة يرسل اليه الكتاب تلو الآخر دون ملل . . .

انفصلت «هند» عن أمها غاضبة وقد تشنج وجهها الصغير في استعداد ظاهر للبكاء :

— لماذا لا تردين على يا أمي ؟ لماذا تصمتين وأنا اكلمك ؟

— آه يا هند ، اعذريني يا صبيتي لقد سرحت قليلا ماذا كنت تقولين ؟

ابتسمت الطفلة ، وقد أشرق وجهها من جديد .

— اني أحب أبي كثيرا كما أحبك يا أمي ، ولكن لا أدري هل هو يحبني أم لا ؟ وهل سيأتيني باللعب والهدايا ؟

جذبت سعاد طفلتها وعانقتها في حضن هامسة في رقة متناهية فهي اغلى شئ ، وحبته لها الحياة :

— هو أيضا يحبك مثل تماما يا هند ، ويسأل عنك دائما في رسائله ، وقد وعدك بهدايا كثيرة ولعب جميلة .

استكانت البنية الصغيرة بين أحضان والدتها الحانية ترقب جنبل في فرحة وسعادة لا يعرفها الا قلبها الصغير قدوم والدها العائد من سفر طويل ، وهي تتساءل في سرها في حيرة طفولية :

هل رائحة أبيها اذا احتضنته كرائحة جدتها المفعمة بالعرق العطر !!؟ لا ان والدها طيب الرائحة فهو لا يعزق الارض مثل جدما ، ولا يتسلق النخيل ليحتطب منه ، ولا يقتلع الحشيش من الارض المبتلة الغبراء ، ولا يركب الحمار الوسخ النتن . . . أبوها كما حدثتها أمها يركب سيارة جميلة ونظيفة لامعة .

مع نسمات الليل الاولى استسلمت «هند» لملاك النوم الطاهر مفترة الثغر عن ابتسامة عذبة ، لقد التفت بوالدها في الحام وحملها بين ذراعيه ضاحكا متهللا يبعث دفاة الابوى بداخل كيائها الصغير ، ومضى الليل يطوى في جوفه لحظات الانتظار والترقب . . . ما أمرها من لحظات عندما تقف في

المواجهة ، بيننا وبين المجهول خيط رفيع جدا نخشى ان نمسك به فينقطع ونظل نرخبه ونمده بدون توقف وفي عملية المد نضيع مرغمين داخل أتون العذاب المحرق . هذا ما عاشته «سعاد» طوال يومها قبل أن تهب لزوجها لتلتقاه بحرارة طاغية منتجة على صدره باندفاع عاطفي عاصف .

ولكن من يكون هذا الرجل الغريب ، القاسى النظرات ؟ انه لا يحمل من زوجها الا ظللا باهتة من ملامحه القديمة ، لقد عانقته بشوق السنوات الاربع بأيامها ولياليها فاستقبلها ببرود قاتل وأشاح عنها نافرا منكسش الاسارير فى قسوة وتحجر ايست عضلاتها ، وجعلت فكرها فى حالة نفور لتلقى آلاف الاسئلة الغريبة تقتلع جذور الاطمئنان من قلبها فتربكها المخاوف المبهمة وتخرج عرائس الحزن من دهشة العدم تنقر طبول الموت والافناء . لا شك أن العالم على حافة الهاوية فالمويل يطفى على كل الاصوات يصدر فى الكون بصخب الموت الاسود ...

النفس هذا اللغز الاخرس كم حاول الانسان تعريتها ليعانق بداخلها الجوهر ويسكن ما به من ضهيل أهوج يمتد فى عمق المتى اللامع ولكن فى زمن العرى .. فى زمن القحط .. والامل الايكم تتشابك العناصر وتتشابك لتلتف خيوط النفس حول بعضها أكثر فأكثر ويصعب بالتالى على الانسان فكها فيزداد عمق الهوة انحدارا ونرجل فى الابعاد .. مكودين .. مقهورين .. مسحوقين .. نبحث عن البعد السابع فالثامن فالتاسع فالالف .

تهالكت سعاد على أحد المقاعد مضضعة الجسد ، مقتولة الاحساس تبحث بنظراتها المشردة فى صمت أبله عن سر زوجها الذى غادرها محبا وعاد باردا ، غامضا ، مبهما . كم تأخذ مسافة التحول .. كم تأخذ من العمر ومن الاشياء لتحيل الالوان الى اللون الآخر وتعطى للانسان البعد الآخر .

قالت تخاطبه ، وهو يهم بالاستعداد للنوم :

— الحمد لله على سلامتكم فكم أنا سعيدة بعودتك . يا الهى .. أربح سنوات طويلة مرت فى حياتى بدونك كان لها مذاق العلقم . ليتك شاهدت هذا اليوم وهى تنفخ وتنط من مكان الى آخر تكاد لهفتها اليك تخنق خطواتها .

– هيه ٠٠ كيف هي ظننت أننى ساجدها بانتظارى .
 – لقد ظلت المسكينة تجاهد لتبقى صاحبة لكن النوم غلبها . انها غدت
 بعد طفلة جميلة ومهذبة تشبهك كثيرا فى قسماتها .

اخترقهما الصمت من جديد فاسحا للوعى الداخلى مجال الحديث اللامنطوق
 وأخيرا رفع اليها عينين محجرتين ينبعث منهما بريق لامع اربعها وهد آخر
 حصون الامان بداخلها ثم قال بصوت كالفحيح :

– سعاد ٠٠٠ ها قد جئت يا سعاد ٠٠٠ بعثت تقولين يجب أن نضع حدا
 فاصلا لعبثية الحياة بيننا ، ها قد جئت تلبية لطلبك ، مشاغلي كثيرة وعمل
 لا يسمح لى بالبقاء هنا أكثر من يومين . أريد أن أنهى هذا الامر سريعا
 فالحرارة فى بلادكم محرقة كل ساعات الكي ، اعتقد أنه مناسب جدا لكلينا كي
 نمضى غدا على وثيقة الطلاق .

حليمة مصباح

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

حكاية الزنجى الأبيض

فى بداية الامر ، كنت أظن أن المشكلة برمتها (أعني مشكلتي) تكمن خلف أنفى ، هذا الانفطس ، وشفاهى ، هذه المتدلية الغليظة الكريهة .

كنت أظن أننى بمجرد تخلصي من هذين المظهرين الكريهين يمكن أن أكون مقبولا عند أهل جيرتى ، ومن يدري ؟ .. لعل اتوقف عن الغناء بمجرد «اصلاحى» لهذا الانف الانفطس ، المشين ، وهذه الشفاء الغليظة القبيحة .

وبالفعل ، لم تأخذ منى المسألة وقتا طويلا من التفكير : اذ سرعان ما اتهمت عمليات «اصلاحى» ، وتجميل .

أصبح لدى أنف ، كذلك الانوف الجميلة الشفاء ، تلك الانوف التى يتمتع بها أصدقائى - سادنى البيض ، بل ربما أحمل قليلا ، أما شفاهى ، فقد أجريت لها عملية تقليم ، وما زلت أقلمها وأرقفها حتى لم تعد تختلف عن شفاء الانسان الأبيض . لكننى ..

ولدهشتى ، وجدت أن هذا الانف «الواقف» قد زاد فى رغبتى فى الغناء ، منخراة اتسعا .. وأصبح الهواء فيها يجول ، ويلف ، ويصول أكثر مما كان، أما شفتائى ، فلانهما أصبحتا رقيقتين ، خفيفتين ، فقد أصبحتا أكثر استجابة للانتشار .

وهكذا .. وجدت طربى ، وشعرى قد ازداد .. وازداد ضيق الجيران بازدياد إيقاعاتى ، وصخبى !

أحدهم .. تقدم الي ، وقال :

- ربما السر لا يكمن فى الانف أو الشفاء .

قلت : يكمن فيم اذن ؟

لم يلبث أن اشار الى جسدى ، وقال :

— انه يكمن فى لون بشرتك .

★ ★ ★

جائز ، (...) ، أنا جاهز لعمل أى شىء حتى لا أسبب ضيقا لاحد . انما كيف أستطيع أن أبدل لوني ؟ أأصبغ بشرتى بلون أبيض ؟ هل أقدر أن أطل هذا الجسد بالقصدير مثلا ؟ أنا مستعد لعمل أى شىء .. لكن هل أستطيع أن أتوقف عن الغناء ؟ ... كنت أفكر فى كل ذلك وأنا أرقص .

فى يوم ما احدثت الى طريقة أبدل بها لون بشرتى ! لا أريد أن أروى التفاصيل ، حتى لا يقلدنى أحد من أبناء جلدتى .. المهم ، أننى — بطريقة ما — سلخت جلدى ، وارتديت لى بشرة نبيلة بيضاء .

حمدا للرب فى سماء !

الآن توفرت لى كل مؤهلات الاحرار :

أنف وشغاه على طراز ابن آدم الابيض ، بشرة ذات لون أبيض كأنه الحليب ... بكل ذلك لن يعود أحد يقوى على تمييزى ... فانا « أبيض » بين أهل جيرتى البيض .

لكننى .. لم أكن أعلم أننى ، بذلك الصنيع ، قد تحولت .. الى أول زنجى أبيض فى التاريخ ..

لأننى .. مازلت أرقص وأغنى ، أرقص وأغنى ..

★ ★ ★

قالوا لى :

— لا يكمن السر فى أنفك ، لا يكمن فى شفاهك ، وليس فى لون بشرتك .
إن السر يكمن فى دمك .

هذه المرة ، لم يركبونى مركبا صعبا . فما دام السر لم يعد فى خياشيم أنفى الافريقى ، ولا فى شفاهى الغليظة الزنجية ، او فى سواد بشرتى الشمسية ... لم يبق الا الدماء .

وها أنا ذا مستعد أن اضحى حق بهذه الدماء ، لو أستطيع أن أريح الآخرين .
نعم ، أنا مستعد لسفح دمي ، هذا الدم ، الذي هو لا محالة لا يزال دما أسود
أسود ، مختفيا وراء بشرتي هذه البيضاء .

في مصرف الدم (بنك الدم سابقا) ، ذلك المجاور للحى الذى أقطن ،
أخذوا ذراعى اليسرى ، وغرزوا فيها إبرة . الإبرة ثابتة فى أنبوبة . الأنبوبة
ثابتة فى برميل يحتوى على دم إنسان أبيض . ذراعى اليمنى ، هي الأخرى ،
مفروزة فيها إبرة متصلة بحنفية .

حينما فتحوا الحنفية ، تقاطر دمي فى برميل النفايات . كان دما أسود
أسود . فيما أخذ الدم الأبيض يتدفق عبر أوعيتى ويشق طريقه للقلب ...
كانت عملية بسيطة : تفريغ وشحن ، هكذا وأنا مستلق ، استمتع بسفح دمي ،
قطرة قطرة . قطرة فى صندوق النفايات .

لكنني ..

ARCHIVE

ما زلت زنجيا أبيض !

ليلة ذلك اليوم لم أغن ، كعادتي ، بل أقنت مهبجانا ...

★ ★ ★

لم تزدد حيرة جيراني فحسب ، بل ازدادت حيرتي أكثر .

أحيانا أقف أمام المرأة أتأمل ملامحي . بماذا أختلف عنهم ؟ أتساءل هكذا ،
وأنا أتفحص هذا الوجه الجديد ، ذا الأنف الأدونيسى الجميل ، ذا الشفاه
العذبة الرقيقة ، أتأمل هذه البشرة البيضاء الملساء ... وأسأل مرة أخرى :
لماذا يتضايق الجيران من غنائى ؟ وما الذى أقدر أن أفعل من أجلهم حتى أكسب
رضاهم ؟

فى الحق ، أنا أيضا لم أعد أرضى عن نفسى .

فلقد ازداد تعلقي بالغناء ، والرقص ، والشعر . بل إننى لم أعد أقوى على
الوقوف ثابتا بدون أن أترنح كالشمل ، أو أتمايل كالدرويش ، أحيانا أتحمّل

على نفسى فاستعين بأيا شيء ، أشده ، استنجده لكي أكتسم أنفاس هذه الحركات ... لكن ... بدون جدوى ، حتى كلامي لم يعد كلاما ، لقد تحول إلى نوع من الغناء ... غناء ؟ شعر ؟ موسيقى ؟ هكذا يتساءل الآخرون ، يظنون أنني بهذه الإيقاعات أسخر منهم ، أولا أبالي بهم ، كل ذلك زاد فى ضيقهم مني ، كما ازدادت تضايقا من نفسى ... لكن ، ما الذى أستطيع أن أصنع ؟

ذات نهار أو ذات ليل ، كالعادة ، لم يدخلوا عنى فى الإجابة ، قالوا بأن علق الجوهرية تكمن فى قلبي .

لم أسطع أن أفقه معنى الكلمة « القلب » . كانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها أن هناك شيئا بين ضلوعى اسمه « قلب » ، قبل هذه المرة ، كنت أظن أن جسدى هذا ، قد خلق هكذا فى إهاب واحد ، مجرد كتلة بين الكتل .

أعنت فى التفكير عبر كريات الدم البيضاء : ما دامت سائر أعضائى التى أراها جيدا ، قبيحة ، فلماذا لا يكون قلبي بدوره ، منكرا وقبيحا ؟ ولماذا لا أسعى إلى تغيير هذه العضلة السخيفة ما وسعنتى الحيلة ؟ ولماذا لا أسعى إلى ذلك عسى أن أظفر برضا جيراني ، وأصدقائي ؟ صحيح ، أنا الآن إنسان أبيض لكنني ما دمت قد أذمت هذا الذاء اللعين ، الشعر والغناء ، فلسست سوى زنجي « أبيض » .

★ ★ ★

لم أعدم الحيلة . لحسن حظي ، كان أحد جيراني على وشك الموت فتبرع لي بقلبه . نزع الطبيب قلبي الذى عرفته بسهولة ، لقد كان أسود بلون الليل ، ووضع بين ضلوعي قلب ذلك الجار الأبيض كنت قد توقعت فى البداية ، أن جسدي قد يرفض أو يطرد هذا الجسم الغريب ، بناء على معلوماتي الطبية ، لكن يبدو أن جسدى ، على استعداد لقبول أي شيء ، إذ سرعان ما انتظمت الدقات في شراييني وأوردتي ، ثم ما لبثت أن تحولت هذه الدقات إلى إيقاعات ... خافتة فى البداية ، ثم أخذت تتصاعد حتى وصلت إلى سائر أعضائي ... الأمر الذى جعلني فى قاعة العمليات ، أرقص وأغنى ... وأقول شيئا شبيها بالشعر ...

سعيد المحروق

طرابلس الغرب

منور النصري

هذه المحطة ...

ما أشقاك أيها الوحيد وأنت تقف مرة أخرى في هذه المحطة المقرورة التي يحاصرها الشتاء وترقص فيها الظلال كالغربان .

ما أشقاك أيها الوحيد وأنت تعانق الضياع في محطة الضياع التي تنتشر فيها رائحة الغربة والوحدة والوحشة .

ما أشقاك وأنت تتطلع الى الحافلات القديمة المتهترئة التي تنهيا للسفر وتنفت دخانها الذي يزيد المكان كآبة ، وترنو الى الوجوه المعتمة التي ترسم عليها الكتابة تعاريج قاسية

الصفصافة العملاقة التي تغطي سماء المحطة تمد أيديها كالأخطبوط لتلتهم كل شيء وتلتهمك ، والباعة الذين انتصبوا على ضفتي المحطة يبيعون البيض والتبغ والحلوى ويبيعون التعب ، هؤلاء الباعة يلهمونك الحزن المر ويرسمون في دقاتر كآبتك مساحات ضيقة باللون الأسود الفقر ورائحة البيض المسلوق والظلال الباردة والاحزان تجتمع في هذه المحطة المقرورة لتجهز عليها وعليك . الشتاء يلف المحطة والمسافرين ويلفك في أحضانه الجليدية والوجوه عليها غيوم رمادية كتلك الغيوم التي تحط في سماء بلدتك في مواسم الصقيع وتأبى أن تنقشع .

وأنت أيضا أيها الوحيد ، على وجهك غيوم تنم على حزن وعينيك طائعتان بين الوجوه المعتمة كأنما تبجثان في الظلال القارسة عن شيء جميل اختفى في هذا المكان .

في رأسك فكرة تتعبك ، تنهش مشاعرك وتأبى أن تغادر رأسك . شيء كالندم يجلدك ، ويجعلك ترى المحطة قائمة مزعجة .

والصقيع يبعثر مشاعرك والكون فى عينيك غيوم قاتمة وضياح بلا نهاية .
أطياف بلون الندم تنزل من السماء ومن الصفصافة العملاقة وتأخذ فكرك
فى رحلة من الهواجس المضنية ، الأطياف تنتصب أمامك ومن حولك وفى كل
مكان وتلهو بأحاسيسك ساخرة منك ، أنت الكئيب أيها الوحيد ، وأنت الذى
تلوك المرارة وتحضن الألم والدنيا لا تزال بخير ، وهذه المحطة ليست أبدا
كما تراها لأن على عينيك غشاوة التعب وغبار السقم .

أفرك عينيك وانظر مليا ، الوجوه تبتسم برغم الريح والصقيع ورائحة البيض
تتسلق الهامات والجدران والأشجار لتنتشر فى كل مكان وتبدد شبح الجوع
ورائحة القهوة القادمة من المقهى الذى فى الضفة الأخرى تزرع الغبطة فى
الوجوه ، والظلال الباردة التى تفرعك ، أنشودة ملونة ولوحة من الفرح الأخضر
والدنيا فى هذه المساحة الصغيرة من الكون ، حركة دائبة ، وصمود وتفاؤل
وانسراح . الفكرة التى فى رأسك تنعكس أيها الوحيد ، وأنت لا تقدر على
طردها . تشعر بالارتباك والتوتر وتكبر فى نفسك مساحة الندم ولا تستطيع
الفرار من هواجسك .

كيف ستهرب من صورة تلك المرأة الطفلة التى استولت فكرك وانتشرت
فى أرجاء المحطة وصعدت فى كل الحافلات ؟

كيف تتخلص من صورتها التى تتسرب الى أرجاء المحطة بأسرع مما تنتشر
به رائحة البيض المسلوق والقهوة .

وجهها الطفولة النضر يطل عليك من وراء بلور الحافلات . عينها الواسعتان
الدافتتان تبددان هدوءك وتعصفان بأفكارك . ما حدث بالأمس لا يزال يشقيك
مشاعرك المذبوحة لا تزال تنتفض فى كل مكان من شدة الألم ، ووجه تلك المرأة
الطفلة لا يزال ينهش أعماقك .

كانت تسير باتجاه المحطة كموجة فى الربيع تضيئها لآلىء الشمس فتتجلى
مفاتنها كالبحر . رمقتك بعينين أجمل من السماء وأوسع من حقول عرفتها فى
صباك ، وابتسمت - هكذا - لم تكن تعرفها ، ولا هى تعرفك - وذاك عيبك -
لأن من لا يعرف القمر أعمى . كنت غبيا لا تحسن الابتسام ، لم تجب على
ابتسامتها واكتفيت بالسير وراءها مفتونا بعينيها ، الى أن ضعبت الحافلة

واخذت مقعدا . كنت كالطفل ، تنظر اليها بغباوة من مكانك هذا . وكانت تبادلك النظرات من حين لآخر .

كانت المحطة في تلك الساعة حقا من الفرح الملون . كان وجهها يلهمك مشاعر لا عهد لك بها . كانت الألوان في رأسك ترقص كزهور الحقول في الربيع . وفي نفس الوقت ، كان قلبك ينتفض جزعا من أن تتحرك الحافلة وتأخذها بعيدا .

كنت مرتبكا ، تود أن تفعل شيئا ، أن تصعد الى الحافلة وتكلمها ، أن تطلب منها النزول اليك . . كنت ترغب في أى شيء إلا أن تبقى جامدا في مكانك كالتمثال أو كطفل يقف أمام البحر لأول مرة .

كانت كلما التفتت في اتجاهك ، اهتزت نفسك ووددت لو تطير وتحط بجانبها كمصفور أزرق . كنت عصقورا ثقيلًا بلا أجنحة ولم يكن لونها أزرق . كنت مجرد تمثال غبي لا يجيد مناجاة القمر ولا يعرف لغة الزهور وكانت نظراتها تصلك كامواج الضيف الفاترة

<http://Archive.org/details/الضيف-الفاترة>

نزلت هي من الحافلة وتصنعت الحديث الى احدى رفيقاتها - أو هكذا كان يخيّل لك - ثم عادت الى مقعدها ، فأحسست أن وجهها يتأدبك وأن ورد خديها يتفتح في صدرك ويداعب احساسك . وددت أن تصعد وراءها وتأخذ الورد بين يديك وتهمس اليها أنك مفتون بالورد . لكنك كنت جباناً ، أو هكذا كنت ترى نفسك ، لم تفعل شيئا ومكنت في مكانك الى ان تحركت الحافلة ، عندها فقط أدركت أنه لا بد أن تفعل أى شيء لتشعرها بما كان يعتمل في نفسك التفتت هي قبل أن تتوارى الحافلة وراء المنعطف كأنما لتبحث عنك - أو هكذا كان يخيّل لك - اضطربت كثيرا قبل ان تقترب من الحافلة التي تحركت ومددت لها جريدة من خلال البلور المفتوح كنت كتبت عليها اسمك وعنوانك حركت يدها تسالك والحافلة تمشي ، عن أمر الجريدة ، أشرت بإصبعك وقلبك يرقص رقصة الهلع أنها تعنيها ومضيت لا تلوى على شيء . اختفيت قبل أن تختفي الحافلة ، رأيته والحافلة تبعد ، تلتفت اليك مرة أخيرة .

كيف حدث كل هذا أيها الوحيد ؟ ماذا كنت تبغى من وراء هذه المغامرة السخيفة ، لا شك أنك مخبول أيها الوحيد أو أنك تصاب أحيانا بالجنون ! لا تقل انها لحظة خارجة عن القانون وغيمة جميلة مرت في سمائك .

ان الغيوم تخلف المطر ، فتكون الحياة ويكون الفرح .

وأنت الآن لست فرحا أبدا ، وسيء التعب والتوتر بادية على وجهك الشتائى المنهوك .

ماذا تخشى أيها الوحيد ؟ أم هو الندم يمزق أعماقك ؟ وعلام الندم ؟

وقد أتيت فعلتك وأنت في منتهى مداركك . لا تقل أنك لم تكن تملك زمام نفسك وأن احساسا غريبا دفعك الى اتيان المغامرة وأن هذا الاحساس الخفى ينشأ فى داخلك كلما تأملت وجهها جميلا فتتنسى نفسك وتنسى روابطك ومبادئك . ان هذا الكلام لا يزيح عنك القلق الذى سيطر على احساسك ولا يبعد عنك الوسواس التى تراقص حولك وتتسلق جدران صدرك لتسرق منك راحة البال .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بعد أيام من الندم المر ، تظهر فى طريق الوحيد تلك المرأة الطفلة التى برحابة عينيها أجهزت على مشاعر الوحيد ، وبوجهها الذى تفتحت فى مداه شقائق النعمان ، أهلكته وقدمته طعما للقلق الذى لا يريح . اهتزت نفس الوحيد وأشرق السرور فى أعماقه وقفز قلبه نحوها يريد أن يسبقه إليها ، لكن مرارة الندم عاودته ، فطأ رأسه - وكانت تمر من أمامه - ومضى لا يدرى هل أحسست به أم أنها مثله قررت أن لا تنظر اليه .

منور النصرى

شـقـرون أو القط الأشقر

— بابا !! بابا !! بابا !!

— ما بك يا ابنتي •

— تصدر إعلانا في الصحافة ، أو نداء في التلفزة ؟

اندعش أبو « فافو » من المفاجأة . كان راجعا من سفر . وحقيقته ما تزال في يده •

قال لابنته مستفهما :

— ماذا حصل يا « فافو » ؟ أمك لم تعلمني بشيء •

— كيف ذلك يا بابا ! ألم تسمع بما حدث • ألم تخاطبك أمي بالهاتف ؟
ألم ترسل اليك برقية ؟

ازداد أبو « فافو » دهشة فاحتضن ابنته وقبلها ... ثم سألها عما حدث ...
فعلا هو لم يسمع شيئا يوجب هذه الحيرة التي عليها ابنته •

قالت « فافو » بين غصة العبرة وحرارة الاحتضان :

— شقرون خرج منذ خمسة أيام ولم يعد ... غاب عنا ... لا ندري أين
هو ... لا شك أنه وجد الباب مفتوحا فخرج ... ضل طريقه ... تاه عن
المنزل فلم يستطع العودة •

— كيف تقولين ذلك والقط معروف عند كل الناس بالفته لمنزله وعودته
إليه !

لكن «هدوء» قاطع والده ..

– كيف يعود – يا أبى – وهو أعمى أو يكاد .. انه لا يبصر حتى على بعد ربع متر ..

وأجهش «هدوء» بالبكاء ..

لقد أصبح الامر جدا ... ما هو مردود ذلك على نفسية أبنائه ؟

وضع الحقيبة جانبا .. قاد طفليه الى داخل المنزل ، وقبل أن يصلوا قاعة الجلوس قال لولده «هدوء» :

– لا تخف يا عزيزى سننظر فى الامر ، وسنعمل كل جهودنا حتى يعود شقرون .

كان ثلاثتهم مشدودين الى شاشة التلفاز .. كانوا يترقبون خبرا سارا عن قطعهم الاشقر (شقرون المحبوب) .. لكن انتهى بثرة الاخبار ، ويغيب الوجه المتكلم دون اشارة الى شقرون ، أو أى خبر عنه .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قال «هدوء» :

– لعلهم يذكرون ذلك فى برنامج الاطفال .

– لا .. لا .. يا «هدوء» .. أنا كتبت رسالة باسم قسم الاخبار فى التلفزة .. كانت رسالتى واضحة مفهومة .. لقد راجعتها سيدتى فى المدرسة وأعجبتها ووافقت على ارسالها .

– اسمعى يا «فافو» عندى فكرة ... نقوم بحملة تمشيط فى كامل الحى ، فى الانهج ، فى الازقة ، فى الساحات ، فى المنازل حتى نعثر على شقرون ... ألم تروا أمس كيف تمكن أولئك الصيادون من القبض على النمر فى ادغال الغابة ..

– فكرة جميلة يا «هدوء» .. لكن نحن عدد قليل : أنا وأنت وصغيرونه .

– لا .. لا .. لسنا قلة .. لكل واحد منا أصدقاءه وصديقاته .. غدا يوم عطلة فلا مدرسة ولا روضة .. على كل واحد منا أن يختار عشرة ...

سنكون أكثر من ثلاثين .. نتقاسم الانهج والساحات والمنازل .. نقوم - إذن - بعملية تمشيط ... هل توافقين ..

كانا يخططان عملية التمشيط عندما أقبلت صغيرونه تلهث من شدة الجرى وصاحت في أخويها :

- هيا .. أسرعا .. شقرون قريب من هنا .. إنه مع جمع من القطط .. هيا .. هيا قبل أن يفلت !

انطلقوا ، ثلاثتهم ، مسرعين الى الشارع الكبير . ثم اقتسموا مداخل الساحة التي رأت فيها صغيرونه القط شقرون .. قاموا بعملية تمشيط مثلما يرون في الافلام والعمليات العسكرية .. التقى ثلاثتهم وسط الساحة الخالية من أى قط وأية قطه .

رجعوا يجرون أذيال الخيبة متسائلين : كيف حرب شقرون واختفى بهذه السرعة وهو لا يكاد يبصر ... أنه لا يجرى ولا يقفز بسهولة ... أنه يحتاط جدا ويخشى السقطة والصدمة .. وأخذوا يعللون ، ويسألون المارة .. من رأى قطا أشقر فى الساحة أو فى الانهج ... شيخ عجوز أياهم من العثور على شقرون ... قال لهم الشيخ العجوز : رأيت قطا أشقر يخالل عصفورا بطي الطيران ... صباح أكل الاخوة فى صنوت واحد ..

- لا .. لا .. ليس هذا الذى نبحث عنه ... شقرون لا يجرى وراء العصافير ولا يخالل ... شقرون يخشى أن يفعل ذلك .

★ ★ ★

صغيرونه قابعة على مدرج المنزل ... تسمرت عيناها على أعلى سياج المنزل ... كان شقرون مقعيا بأعلى السياج .. من أعانه على ذلك؟! كيف تمكن من الصعود .. هل طلع وحده ..؟ من جنى عليه .. أنه يحاول النزول دون أن يستطيع ... أنه لا يرى الأرض ... يمد قائمته بحافة السياج فيرده الفراغ .. يتعطل .. يموء .. يمدد عنقه .. يتراجع .. يمشى على السياج فى حذر شديد .. أنه يخشى السقوط .. لو كان يبصر لامكنه القفز ، الوثوب ، التخطي .. آه يارب !! كاد يسقط .. علي أن أنادى « هـدو » ليساعده على النزول ..

أسندت قربه عصا طويلة .. هل يمسك بها وينحدر ... لا ..

حاولت صغيرونه التسلق بالسياج فجاءت أمها تجرى صائحة تخشى عليها من السقوط أو اذاية القط . . . لقد أنزلته أمس بصعوبة . . . كاد يمزق ساعدها لو لم تغط القط بقفة . . . لكن كيف رجع اليوم من جديد . . . كان أمس محاطا بأربع قطط . . . كن يحاولنه وهو لا يستطيع . . . انه منشغل بمواضع مخالفه على السياج . . . عندما وصلت هربت القطط وبقي وحده . . . هذه عشرة أم ماذا ؟! لماذا لم يساعدنه على النزول ، وهربن دونه ؟!

احتارت الام كيف أعاد الصعود هذا اليوم . . . ألا يذكر ما حصل له بالأمس ؟ . . . ألا يتعظ . . . ولكن كيف أمكن له أمس أن يصعد .

فرحت صغيرونه عندما شاهدت أمها تقرب القفة من رأس شقرون ، وتسرع بانزاله . وبقيت صغيرونه في مكانها رغم أن شقرون تبع أمها مبصبا ، مخترقا ما بين ساقيها ، متشجعا وانحنتا كأنه يشكرها على انقاذه من ورطته .

قصة شقرون والاربع قطط عادت بصغيرونه الى ما شاهدته منذ أسبوع كيف أن شقرون كان في غاية الاستسلام والضعف . كان قابعا حذو الجدار يتحسس بأذنيه حركات هرة بعيدة عنه تبدو عليها غاية الشراسة ، وتنظر الى شقرون نظرات غاضبة حاقدة .

غاط صغيرونه هذا المشهد، وأحست بخوف على شقرون من تلك القطة فالتفت بحجر نحو القطة فهربت . وظلت صغيرونه في حيرة من ذلك المشهد فقالت يومها لابيها متبججة بما فعلت من معروف مع شقرون . وطن الخبر في أذن أبيها . . . انه يعرف شيئا عن تلك الحالة . وامتدت يده الى مظان العثور على بغيته حتى وجد ضالته وقرأ من قلم الجاحظ .

« . . . لا نشك أن الهر أقوى من الهرة في كل الحالات حتى اذا سغدها فحدثت بينهما بغضاء ومطالبة ، حدثت للهرة شجاعة ، وللهر ضعف ، فصارت الهرة في هذه الحال أقوى ، وصار الهر أضعف ، ولولا أنه يمعن الهرب غاية الامعان ، ثم لحقته لقطعه وهو مستخذ . »

واكتفى الوالد بالقراءة كما اكتفت صغيرونه بالاخبار .

★ ★ ★

لم يزر الهادى منزل صديقه محمود منذ ثلاثة أشهر . وكان فيما مضى لا يغيب عنه أكثر من أسبوع .

كان قنار الحمام الذى جاء به الهادى - وهو الصياد الماهر - يملأ خياشيم « فافو » . وبدل أن يشير فيها القنار شهية الأكل فانه قادعا الى بعيد ، خارج المنزل .

« أين أنت الآن يا شقرون ؟ لماذا طال غيابك عني وعن رائحة هذا القنار الفواح ؟! انى لو استطعت لسددت أنفى حتى لا أشمه دونك يا شقرون . . . ماذا تصنع يا شقرون ؟ من يحضنك ويقبلك ؟ من التى تضمك تحت لحافها كما أفعل بك ؟ من تربت شعرك ؟ من تحكي لك وتغني لك ؟ من التى تقدم لك طعامها وتوثرك على نفسها ؟ قل لى يا عزيزى شقرون ، هل وجدت عوضا عنا ؟! اننا كلنا نجلك ونعطف عليك . . . هل ضللت الطريق أو دهستك سيارة ؟ هل وجدوك أعى فرموا بك فى القفار ؟ ألم يقولوا : ان القط يعود الى ربة منزله ! . . . فهل وجدت بديلا عن أمتنا . . . انك دائما تشم رائحتها من بعيد فى الليل وفي القفار . . . انك تعرف حركة أقدامها واتجاه خطواتها . . . فهل هجرتنا الى الأبد . . . هل وجدت خيرا منا ؟ مستحيل يا شقرونى العزيز . . . اننا نجبك لذاتك . . . لما أصبت به من عاعة . . . لقد عرضناك مرات على الاطباء فأياسونا من شفائك وعودتك الى الإبصار ، لكن ذلك زادنا تعلقا بك ، وعطفا عليك . . . انك أصبحت تعرفنا بأصواتنا وحركاتنا ورائحاتنا . . . فكيف سمحت لنفسك بالبعد عنا . . . كيف خرجت من المنزل ونحن الحريصون على تغليق أبوابه حتى لا تتيه فى الطريق . . . فهل جاءك أهلك الاولون فأخذوك دون أن يستأذنوا أو يشكروا . . . لماذا يتركوننا هكذا نتمتع ونشقى ؟ هل بلغ بهم الجحود هذا المبلغ ؟ هل هم أراuf بك منا ؟! هذا غير صحيح . لو كانوا كذلك لا علمونا حتى نطمئن عليك ونهنا بالابعدك ؟! »

سمع الهادى فى زيارته لصديقه محمود الكثير من أخبار شقرون . . . سمعها من كل أفراد العائلة . . . وكاد لا يصدق كل ما سمعه من أخبار شقرون

ومن تعلق هذه العائلة به . وكان من أعجب ما سمع أن جاءت « فافو » تطلب منه أن يشاركهم في موكب دفن شقرون .

– هل مات شقرون يا « فافو » ؟

– لا . يا عمو الهادي ... لا نعرف شيئا عنه .

– فلماذا – اذن – موكب الدفن .

– لقد مضى أربعون يوما على غيابه ؟ ألا يكفي ذلك .

– ستقيمين له اربعينية اذن ؟

– لا يا عمو الهادي . ان ذكرى شقرون ستظل صامدة لا يحدها زمن ، ولا يبعدها غياب .. لقد رأيته في المنام أحضر له قبرا في حديقتنا ، ورأيتني ينظر الي مفتاح العينين – هذه المرة – رأيتني يضحك لي ، وقد تمدد – داخل الحفرة – وهو يشير بيديه الى ردمه بالتراب ... قال لي بكلام الانسان : لا تنسى يا « فافو » أنني أحبك جدا .. أنني سأذكر جميلك وجميل أهلِكَ لكل من أراه ... سوف أقول له : ان « فافو » تحب الحيوان لأنها تحب الانسان ... فهل بعد هذا يا عمو الهادي ... لا أقوم بإجابتي نحوه ؟

وجاء « هـدو » يعلم أن الاصدقاء والصديقات جاؤوا ليشاركوهم في موكب الاربعينية . وطلب من أمه وأبيه وعمو الهادي أن يشاركوهم في الموكب ، وأن يلتحقوا بهم في حديقة المنزل .

نظر الهادي الى صديقه محمود كأنه يستطلع رأيه في هذا العرض . فاقترب منه محمود وقال له في شبه همس مع حزم :

– انه الحل الاسلامي . يا عزيزي .

محمد العروسي المطوي

1987 / 3 / 20

الفهرس

العدد الثالث (جويلية - سبتمبر 1987) من المجلد التاسع عشر

تصدير	قصص	3
قبر في المدينة	التابعي الأخضر ..	5
الأكواريوم	نافلة ذهب	14
الموت البطيء	تعريب : أحمد ممو	18
صورة المجتمع في رواية « محاولة عيش » ..	نور الدين بلقاسم ..	25
حكاية الزرقاء	زهرة الجلصي	36
فتيان وفتيات	محمود بلعيد	44
إشكالية السعي والفشل في « دهاليز الزمن المتدد »	أحفناوي الماكري ..	53
حوار بين ريم العيساوي وضياء قصبي ..	بنت النجم	59
مقبرة الجوع	عبد العزيز فاقت ..	66
الرواية العربية ما زالت واقعية الصلة بالحرب	إحسانة الصولي	70
السفر	عبد العزيز نجم	77
الحدد الفاصل	حليمة مصباح	82
حكاية الزنجي الأبيض	سعيد المحروق	90
هذه المحطة	منور النصري	94
شكرون	محمد العروسي الطوي ..	98

تم طبع هذه المجلة بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم
تحت عدد 780 / 87 - الايداع القانوني 4 / 87